

الامبراطور ايراهيم

تيرينوس



المنشور في القاهرة



0160893

Biblioteca Alexandrina

تاريخ ايراهيم في مصر

جمال طور الرحيب تيسير يوس

تأليف : إرنست ماسون
تعريب : جمال السيد



الهيئة العربية العامة للكتاب

١٩٨٥

الاخراج الفنى : سهير معطى

-
- الحياة الخاصة لتيبيريوس كلوديوس نيرو .. القاتل السفاك ..
الطاغية .. الحاكم المطلق على ١٠٠ مليون نسمة .
- كان بغيلا . ولكنه كان يعيش في ترف ورفاهية .
 - كان منحرفا . وكان القتل والجنس هما كل متعته .
 - في عهده صلب المسيح ، وباسمه دعيت بحيرة طبرية .
 - كان يكره كل الناس ، وكانوا كلهم يكرهونه .

جمال السيد

الحياة الخاصة لامبراطور روماني

منذ ألفى عام أعتلى عرش روما امبراطور جديد • وكان اسمه هو تيبيريوس كلوديوس نيرو • ولقد حيرت وأفزعت قصة حياته العالم مع يومها حتى الآن •

فقد كان طاغية بخيلا منحرفا سفاكا للدماء • ولكن الامبراطورية الرومانية استقرت في عهده وازدهرت اقتصادياتها •

وكان يعذب خصومه عذابا رهيبا • ولكنه كان هو الذى أعلن Pax Romana «السلام الروماني» ومنع شن حروب جديدة •

وكان جشعا للمال ولكنه لم يفرض أى ضرائب جديدة • وكانت الضرائب فى عهده معتدلة — بمقياس العصر — •

وكان يرتاح الى الفلاسفة والشعراء والفنانين والمنجمين ويغمرهم بالهبات ولكن قصوره كانت تعج بالجوارى والسبايا والفلمن ، وكان شاذا فى علاقته بهم •

وقد قضى أعوامه الأربعة عشر الأخيرة فى جزيرة كابرى
مستمتعا بالجنس وبالتعذيب وسفك الدماء . ولكنه ترك
امبراطورية مستقرة وموطدة الأركان . حتى لقد قال عنه
المؤرخ مومسن « انه كان أقدر حاكم للامبراطورية الرومانية
على وجه الاطلاق » .

كلمة للمعرب

لو أن كاتباً مغرقاً في الخيال ، كان هو مؤلف هذا الكتاب ، لما وجد من يصدقه - وحين أدهشني ذلك التتابع الدرامي لحياة تيبيريوس ، وتلك الأحداث الرهيبة التي عاشها ، أو ساهم فيها ، أو انفرد بارتكابها ، فأننى رحت أقابلها بما ورد فى المراجع التاريخية ، فوجدتها مثبتة فيها بنفس الصور ونفس الألوان - وصدق من قال ان حقائق الحياة أغرب من كل خيال -

وبهذه المشاعر نقلت هذا الكتاب الى العربية وأضفت اليه التعريفات اللازمة ٧

جمال السيد

الفصل الأول

الرجل * في سطور

كان اسمه هو تيبيريوس كلوديوس نيرو وكان عدد رعاياه هو مائة مليون نسمة .

وقد ولد في وسط مأساة ضخمة وعاش حتى سن الكهولة في ظل رجل عات من بناء الامبراطوريات . وقد أحب مرتين وفشل في الحب مرتين . وفي نهاية عمره كان مكروها من كل انسان على قيد الحياة ، ولم يشك هو عن تلك القاعدة . فقد كان يكره نفسه .

وقد قضى تيبيريوس طفولته في وحدة مروعة ثم قضى معظم عمره في الجري من كل مكان . فقد كان يخشى الناس لأنه كان يحتقر كل الناس ، وكان يأسا من اصلاح روما ولذا فانه هجرها . وكان يمارس أفظع ضروب القسوة مع أعدائه ولم يكن له أصدقاء البتة .

وكان - كحاكم - يراعى شكلية القانون أما أخلاقياته فلم تكن تهمه في شيء . وكان القانون الروماني يحتوي على

بعض القواعد المطلقة التي لا سبيل الى نقضها • ولكن
تيبيريوس كان يبتكر من الوسائل ما يتفق مع نص القانون
ويتناقض تماما مع روحه • وكان طريقته في احترام ظاهر
النص القانوني ثم في تنفيذه طبقا لرغباته وآهوائه أبشع
بكثير من الظلم المطلق الصريح •

وفي حياته الخاصة كان أكثر من وحش ، فقد كان يهوى
هتك الأطفال ، وكان يطارد سيدات روما بعروض قدرة ،
وكان يستمتع بإيلاهم الآخرين • ومع ذلك فانه كان مثقفا
وعالما - بمقياس العصر - وكان متضلعا في الأدب اليوناني
وعلم الطب وعلم قراءة الطوالع • وفي نفس الوقت الذي
كان يعيش الناس فيه في رعب منه فانه كان - بدوره -
يعيش في رعب من الناس •

وقد حاول منافسوه في العرش أن يتخلصوا منه ولكنه
نجح في أن يتخلص هو منهم • وكانت زوجته جوليا - ابنة
الامبراطور اغسطس - من ألد أعدائه • وكانت تهب نفسها
كل ليلة لأول عابر سبيل ، ثم تصرف نهارها في التآمر على
زوجها • وبينما قضت والدته السنين في تدبير أمر توليه
العرش فانها صارت في النهاية مصدر تهديد لعرشه حتى أنه
رفض أن يأذن بدفنها عندما ماتت وترك جثتها حتى تعفنت ،
ولم يوافق على دفنها الا بعد أن زكمت رائحتها الأنوف •
وبذلك انتقم منها على طريقته • • فهو - من وجهة نظره -
لم يرتكب في حقها فعلا معينا ، وانما هو اكتفى بالصمت
والسكون ، وهكذا يكون قد عاقبها بالمهانة والتحقير جزاء
وفاقا لما ارتكبته في حقه مع آثام •

ومع ذلك فانه كان اداريا ممتازا • وكان عهده أفضل بكثير من عهود سائر الأباطرة ، وكانت الامبراطورية في عهده تعيش في سلام ورفاهية • وكان الذي يميز تيبيريوس عن الأباطرة الطغاة مثل كاليجولا ونيرون هو أنه كان أرحم منهم ، ليس بمعنى الرحمة في حد ذاتها ، وإنما بمعنى أن قسوته كانت — على بشاعاتها — أقل بكثير مما فعلوه من مذابح رهيبة •

وبقدر ما كان تيبيريوس منحرفا وطاغية وسفاكا للدماء فانه لم يكن غبيا ولا مجنونًا وإنما كان رجلا مستنيرا ومثقفا — بمقياس العصر — وكان أقدر من حكموا الامبراطورية من حيث الكفاءة الادارية •

على أنه بكل أسف كان يؤمن ببعض الحكم الخاطئة ومنها «من بعدى فلتأكل النيران الأرض» • وفعلا أشعل خلقاؤه «كاليجولا وكلوديوس ونيرون» هذه النيران •

الفصل الثانى

البداية الدامية

لقد ولد تيبيريوس منذ ألفى عام • وكانت روما وقتها قد أصبحت مدينة ضخمة وعاصمة للامبراطورية الرومانية • وقبل مولد تيبيريوس بخمسمائة عام كان عدد سكان روما قد بلغ $\frac{3}{4}$ مليون نسمة ، وكانت كتائب الليجيون قد بدأت سلسلة الغزوات التى احتلت بها كل أجزاء شبه الجزيرة الايطالية وكان حوض البحر الابيض المتوسط ومعظم العالم المعروف وقتها يتبعها • وكانت الدولة تحت الحكم الجمهورى • وراحت روما تزداد نموا واثراء • وكانت معظم طبقات الشعب حرة • وكان ذلك أمرا جديدا على العالم • وصحيح أن الشعب الاغريقى قد عرف «حرية المواطن» ولكن ذلك كان على نطاق ضيق بتركهم صغر حجم المدن الاغريقية • أما روما فقد أصبحت قوية وغنية وحررة فى آن واحد • وكان حكام المدن يختارون بطريق الانتخاب • وكان السناتو «مجلس الشيوخ» هو الذى يرسم السياسة الخارجية • وكان المواطن يعرف أين يقف ، بمعنى أن حقوقه كانت مستقرة ومضمونة بحكم الدستور

والقانون • ومع أن حقوق الطبقات العليا كانت تزيد على حقوق المواطن العادى ، الا أنه كان — اذا تعرض للظلم — يعرف أنه هو الذى انتخب هؤلاء الذين كانوا يحكمونه •

وقد غير يوليوس قيصر (١) كل معالم تلك الصورة •

وكان قيصر طموحا وقويا وخطرا فى آن واحد • وكان على استعداد لأن يفعل أى شىء فى سبيل الوصول الى السلطة • ولم يكن النظام الجمهورى ليروق له • وكان يؤمن بأن الحكومة يجب أن تخضع لشخص واحد قوى • وكان ذلك الشخص هو نفسه • ولذا فانه لم يتورع عن الرشوة والغش والقتل فى سبيل الاستيلاء على مقاليد الحكم • وكان يعرف بأن النظام الجمهورى من القوة بحيث لا يمكن تغييره الا عن طريق خلخلته من الداخل • فبدأ باقتناع السناتو بتعيينه قائدا لأحد الجيوش • ثم راح يعمل على كسب ولاء الجيش لنفسه هو وليس لروما • ثم قام بغزوات ناجحة باسم روما • ولكنه راح يستخدم الغنائم فى شراء أصوات الرومان ، حتى أعطوا أصواتهم لصالحه ومنحوه حق قيادة جيوش أخرى وحق القيام بغزوات أكثر •

وكان قيصر يريد أن يكون ملكا • ولكنه كان من الذكاء بحيث تبين أنه يجب أن يحصل على سلطات الملك قبل أن يحاول الحصول على لقبه •

وقط لم يصبح قيصر ملكا ، لأن خناجر بروتوس وصحبه قد تمكنت من حرمانه من ذلك ، ولكنه استطاع أن يكون

(١) جايوس يوليوس قيصر • ولد عام ١٠٢ ق م ، وقتل فى ١٥ مارس عام ٤٤ ق م
وكان أول من لقب بـ دكتاتور ولقب امراطور •

إمبراطورا • وكان هو أول إمبراطور على روما وأول صاحب لهذا اللقب • ومع أن أنصار الجمهورية قد تمكنوا من قتله بخنجرهم ، إلا أن الجمهورية كانت قد ماتت فعلا •

ولقد أشعل مقتل قيصر أكبر حرب أهلية في تاريخ روما • وقد استمرت هذه الحرب لمدة ثلاثة عشر عاما • وكان أحد طرفيها هو بروتس (الذي كان ريبيا لقيصر) وكاسيوس وباقي أنصار الجمهورية • أما الطرف الآخر فكان مكونا من أصدقاء وأقارب قيصر • وكان أحدهم هو مارك أنطوني وكان الثاني هو لبيدوس وكان الثالث هو الوريث الشرعي لقيصر وكان اسمه هو أكتافيان (وقد استبدل هو ذلك الاسم فيما بعد باسم أغسطس ، وسوف نعرفه بذلك الاسم من الآن فصاعدا) • وكان هؤلاء الثلاثة يسمون أنفسهم «المنتصرون» وكان هدفهم المعلن هو الانتقام من قتلة قيصر ، أما هدفهم الحقيقي فكان هو السلطة والحكم •

وفي خضم تلك الأحداث ولد تيبيريوس •

وكانت والدته اسمها ليفيا • وقد ولدته وعمرها ثلاثة عشر عاما فقط وكان زوجها رجلا عظيما ، أما هي فكانت سليلة أسرة من أكبر أسر روما وكذلك كان زوجها ، الذي كان أيضا ابن عمها •

وكانت ليفيا جميلة وذات عينين حنونتين • وكانت تمتلك كل الفضائل المطلوبة في المرأة الرومانية النموذجية • فقد كانت عفيفة وحازمة ومخلصة • وكان مطلوبا من ربة البيت الرومانية أن تدير بيتها بمهارة مدير المصنع • وفي

الواقع ان البيوت الرومانية الكبيرة كانت أشبه بالمصانع .
فقد كان كل شيء يتم صنعه فيها . الملابس (غزلا ونسجا
وتفصيلا) والأثاث والأدوات المختلفة ، هذا بالإضافة الى
تربية اللحوم والطيور وطحن وعجن وخبز الخبز ، الخ المطالب
المنزلية .

وكانت ليفيا تستطيع أن تقوم بأداء ذلك كله . وحتى
عندما كان لديها ستمائة من العبيد ، فانها كانت تصرف
الساعات فى متابعة كل التفاصيل وكانت تستطيع أن تكشف
أضال خطأ فى نسج ثوب أو فى تنجيد مقعد . وكان من
المفروض فى الأم الرومانية أن تكون متواضعة وبعيدة عن
الفضائح ، وكذلك كانت ليفيا . ومع أن مجتمعها كان يعج
بالفضائح فان أحدا لم يتناول اسمها فى أى وقت بما يشين .
ولقد حدث أن أحاط بها فى الطريق ذات يوم ، غدد من
الرومانيين العرايا ، لكى يستثيروها ، ولكنها رفضت مطلقا
أن يعاقبوا ، وقالت ان الرجال فى نظرها لايزيدون عن كونهم
تماثيل من الرخام .

وعندما كانت حاملا فى تيبيروس فانها كانت تحتفظ
ببيضة مخصبة بين ثدييها . وعندما كانت تنام فانها كانت
تعطى البيضة لواحدة من الجوازي لكى تدفئها على نفس
الصورة . وكان هدفها هو تبين نوع ومصدر جنينها . وعندما
فقسست البيضة وخرج منها كتكوت ذو عرف جميل شمل
الابتهاج البيت كله . فقد كان الكتكوت علامة على أن المولود
سوف يكون ذكرا ، وكان العرف علامة على أنه سوف يكون
رجلا عظيما .

وفى ذلك الوقت كانت جيوش المنتصرين والجمهوريين

تقاتل بعضها فى معركة فيليبى (٤٢ ق م) • وكان النصر
 حليف «المنتصرين» وقتل بروتس وكاسيوس ، بينما تضرعت
 كتائبهما طلبا للعفو ، وطلبت قبول انضمامها الى جيوش
 المنتصرين • وبذلك ذوى آخر أمل للجمهورية •

وبعد شهرين (فى ١٦ نوفمبر ٤٢ ق م) ولد
 تيبيريوس •

وكان العالم الذى ولد فيه تيبيريوس يعج بالأحداث •
 فكم من شعوب بيعت بأكملها فى سوق العبيد • وكم من مدن
 نهبت نهبا منظما • وكان كل رومانى تقريبا قد دخل
 (مضطرا أو مختارا) فى الحرب الأهلية ، وبالتالي فانه كان
 يواجه اما المجد والغنى واما الذبح أو التشريد •

وكان والد تيبيريوس يدعى تيبيريوس كلوديوس نيرو
 الأكبر • وكان قائدا لأحد أساطيل يوليوس قيصر ، كما كان
 من كبار كهنة الديانة الأوليمبية ، كما أنه شغل مناصب
 كبيرة فى حكومة روما • وبعد معركة فيليبى أعلن الوالد
 ولاءه لمارك أنتونى • وكان يحسب أنه قد آمن مستقبله
 بذلك • ولكن الذى حدث هو أنه لم تكد تمضى أسابيع قلائل
 حتى دب الخلاف بين «المنتصرين» ووقع تيبيريوس الأب بين
 شقى الرضى ، فرأى أن ينجو بنفسه وعائلته من ذلك المأزق
 فهاجر من روما بعائلته واستقر فى مدينة بروجيا ، التى
 تقع فى جبال الأبنين ، والتى طالما استعصت على الحصار •
 وكان يحسب أنه سوف يعيش هناك فى أمان • وكانت تلك
 هى غلطته الأولى •

فقد كان أغسطس وأنتونى قد تقاسما الامبراطورية

فكان شبه الجزيرة الايطالية من نصيب الأول . ورأى أغسطس أن يبدأ بتأديب أنصار مارك أنتوني ، وكانت بروجيا تعج بهم . وكان شقيق مارك أنتوني (لوشيس انتونيوس) قد استولى فعلا على حكم المدينة وراح يحصنها ويستورد لها المقاتلين والمصارعين والاسلحة ويخزن بها الأقوات . ولذا فان أغسطس بدأ أول مابداً بها . فحاصرها وأجاعها حتى سقطت فى يده . ولم يضيع أغسطس (الذى كان لم يتعد العشرين من عمره بعد) وقتاً فى اعطاء الرومانيين درسا رهيبا ، اذ انتخب ثلاثمائة من بين الثائرين ، وكان من بينهم فرسان ونبلاء وأعضاء فى مجلس الشيوخ ، وذبحهم واحدا بعد الآخر . . قربانا لروح قيصر .

ولم يكن تيبيريوس الأب من بينهم لانه كان قد فر الى نابولي ، حيث حاول أن يقود ثورة ضد أغسطس ، ولكنه فشل ، واضطر الى الهرب بعائلته فى قارب صغير الى صقلية . وكان القارب صغيرا ، وكان الهاربون عليه أكثر من حمولته ولذا فان واحدا منهم (فيلبوس باتركيولوس) ، وكان صديقا لتيبيريوس الأب ، قتل نفسه لكى يعطى الآخرين فرصة النجاة .

وكانت صقلية تحت حكم سيكستوس بومبي ، الذى كان قائدا بحريا غريب الطباع وكان مستقلا عن روما تقريبا ، ولكنه كان قد عقد تحالفا مع أغسطس . وبذلك لم تكن صقلية بالمكان الآمن لتيبيريوس الأب وعائلته ، ولذا فانه غادرها الى اليونان . وحتى وهم فى اليونان ، لم تخل حياتهم من مخاطر ، كان من أبشعها ماتعرضوا له من خطر الموت حرقا . وكان ذلك عندما اشتعلت النار فى غابة كانوا

يخترقونها • ومع أنهم نجوا من الموت إلا أن النار أمسكت بشعر وثياب ليفيا وأحرقتهما •

وفي اليونان تلقى تيبيريوس الأب عفوا من أغسطس فعاد للتو بعائلته الى روما • وكان عمر ابته اذ ذاك هو ثلاث سنوات ، وكان قد رأى في هذه السنوات من المعارك والمذابح والكوارث ما يمكن أن يكون قد رآه رجل معمر •

وفي سبتمبر من نفس العام (٣٩ ق-م) عاد أغسطس الى روما ، بعد جولة كان يفتش فيها على ممتلكاته في بلاد الغال • وفي روما رأى ليفيا للمرة الأولى •

وكان عمر ليفيا وقتئذ هو سبعة عشر عاما ، وكانت حاملا في طفلها الثاني • ووقع أغسطس في حبها ، فلم يتردد (بالرغم من كونها حاملا ومن كونها متزوجة) في العمل على الاستيلاء عليها ، فقد كانت أربع سنوات من السلطة المطلقة كافية لأن تحول (هذا الذي كان متهما في صباه بأنه الطرف السالب في الجنسية المثلية وكان متهما بأنه أسلم نفسه في هذا المجال ليوليوس قيصر) الى طاغية يعرف كيف يحصل على ما يريد •

وكان زوج ليفيا يمثل عقبة أمام رغبة أغسطس • ولكنها كانت عقبة سهلة • أما العقبة الكبرى فكانت تتمثل في القانون الروماني ، الذي كان أغسطس لم يصل بعد الى حد القدرة على مخالفته • ولذا فانه لجأ الى رجال القانون طلبا للفتوى التي تحقق له رغبته • وكان السؤال الذي وجهه اليهم هو «هل يجوز للمرأة المطلقة أن تتزوج على الفور ، وهي ما تزال حاملا من مطلقها؟» • وكان رجال القانون

يعرفون الجواب الذى كان يريده أغسطس ، كما أنهم كانوا يعرفون مصير من يقف فى سبيله • ولذا فانهم لم يترددوا فى الاجابة بنعم • • فمادامت المرأة متأكدة من حملها فانه لا يوجد شك فى نسبة جنينها الى والده الأسمى • ومادام الشك فى نسبة الجنين قد زال فانها تستطيع أن تتزوج من غير مطلقها على الفور •

وكانت ليفيا متأكدة من حملها لأنها كانت فى الشهر السادس منه • أما عن تيبيريوس الأب فانه لم يتردد فى تطبيقها • بل انه كان من الكرم بحيث تبرع بدفع دوطتها لأغسطس • • •

وبقيت عقبة واحدة • فقد كان أغسطس متزوجا من احدى قريبات سكستوس بومبى ، وكان اسمها سكريبونيا ، وكانت حاملا فى شهرها الأخير • ولكن بومبى كان تحت سيطرة أغسطس • ولذا فان الأخير طلقها • وتم الطلاق فى نفس اليوم الذى ولدت فيه ابنتها جوليا • وذهبت ليفيا الى قصر أغسطس بعد أن تركت تيبيريوس الصغير فى رعاية أبيه • وبعد ثلاثة أشهر ولدت ابنها الثانى «دروسوس» الذى أرسل على الفور الى أبيه • فقد كان أغسطس طاغية ، ولكن ليس الى الحد الذى يحرم به والدا من أبنائه • •

الفصل الثالث

أغسطس

ماذا كان شكل أغسطس؟؟ ذلك الرجل الذى كان ظله
يخيم على كل العالم الرومانى .

لقد كان متوسط الطول . وكانت أعضاؤه وملامحه
متناسقة ، وكان أشقر الشعر وكان حاجباه يمتدان عبر أنفه
الرومانى وكانت عيناه شديداً اللعان . وكان هو فنخورا
بهاتين العينين اللتين كانتا تقذفان بشرر مقدس . . . وكان
المنافقون يتظاهرون بأنهم لا يستطيعون تحمل نظراته ، وذلك
على زعم أن لهيبها كان يصيبهم بالدوار . وكان ذلك يسره
كثيراً .

وعلى صدره كانت توجد نقط تشبه (فيما زعموا) نجوم
الدب الأكبر . وفى كهولته ، كان قد فقد وسامته وفقدت
أحدى عينيه القدرة على الابصار ، وتسوست أسنانه ،
وأصيبت ساقه بعرج خفيف ، وانتشرت البقع فى جسمه .
ولكنه كان دائماً مهيباً وجليلاً . وقد أنقذت هاتان الصفتان

حياته • وكان ذلك حينما حاول مقاتل من الغال أن يفتاله • ولكنه ماكاد يواجه وجهه الهادئ الرصين حتى فقد شجاعته واستدار هاربا • ولقد كان أغسطس فى أوج وسامته وشبابه عندما سرق ليفيا من زوجها ، وكان من قبلها قد تزوج مرتين • وكانت زوجته الأولى هى ابنة زوجة حليفه مارك أنتونى ولكن زفافه عليها لم يتم لأنه تشاجر مع أمها فطلقها • ثم تزوج سكريبونيا ، التى كانت قد تزوجت مرتين من قبل وأنجبت طفلا من أحد زوجيها ، وكانت ميزتها هى أنها كانت من قريبات لوجى سكتوس بومبى • وكان الأخير يكره الأرض ويفضل البحر • وقد قضى عمره وهو يقود الأساطيل ويركز جهوده على حروب البحر • وكان لا ينطق اللاتينية الا بصعوبة ، وكان يزعم أنه سليل اله البحر «نبتون» •

ويقول الحكيم اللورد آكتون «ان السلطة تفسد الانسان • أما السلطة المطلقة فانها تفسده تماما» • وكان ذلك — كما هو فى كل مكان — صحيحا فى روما • وفى ذلك الوقت كان الوصول الى السلطة والاحتفاظ بها يتطلب قدرا كبيرا من القسوة والوحشية • ولقد كان أغسطس أميرا عظيما وعاقلا ، استطاع أن يسجل اسمه فى التاريخ باعتباره هو الذى استطاع أن يسوس الامبراطورية بحكمة وبحزم • الأمر الذى جعل منها عالما أفضل وأكثر سلاما مما كان • ولكن ذلك كله تم على حساب دماء الأبرياء وأموالهم •

وتفصيل ذلك أن الدفاع عن الامبراطورية وإدارة الحكم فى مستعمراتها كانا موكولا الى الجيش • وكان الجيش يحتاج للمال • وللحصول على المال كان على فريق المنتصرين — فى

بادئ الأمر - أن يأخذوه ممن يمتلكونه . وكانت مدن المستعمرات هي هدفهم الأول ، ففرضوا عليها أفدح الضرائب واستنزفوا ثرواتها . ولقد أجبروا عددا من المدن الآسيوية - بحد السيف - على دفع ضرائب عشر سنوات مقدما . وكان تنفيذ ذلك مستحيلا لأن تلك المدن كانت قد دفعت ضرائب عشر سنوات مقدما لجيوش الجمهوريين . ولهذا السبب فإن المنتصرين لم يتورعوا عن نهب خزائن البلديات وبيع أملاكها في المزاد ، ثم عن نهب أملاك الأهالي وبيعها في المزاد بدورها . وعندما لم يكن ذلك يكفي لتسديد المطلوب فإن الآباء لم يجروا أمامهم سوى أن يبيعوا أطفالهم الأحرار في سوق العبيد .

وفي روما ، كان عدد من الأغنياء قد انضم إلى الجمهوريين . وجاء الدور على هؤلاء ليدفعوا ثمن تلك الفلطة . وكان القانون يقضى بمصادرة أملاك المواطنين الخونة ، ولكنه كان يبيح لورثتهم أن يطلبوا استعادة هذه الأملاك . ولتفادي ذلك الاحتمال فإنه كان يتم اعدام الجمهوريين وورثتهم معا . . حتى ولو كان هؤلاء الورثة مجرد أطفال .

وحين استقل أغسطس بحكم روما فإنه لم يفعل أقل من ذلك . فقد كان عليه أن يدفع مرتبات نصف مليون جندي . ولذا فإنه لم يتورع حتى عن ادراج أوصيائه هو في قائمة الضحايا .

ومع انه كان يخشى من اغضاب الجنود فإنهم كانوا أكثر خشية من غضبه هو . لأنه لم يكن يتسامح مع من ينهزم

منهم - فقد كان يصف القوات المنهزمة ثم يعدم كل عاشر رجل منهم .

أما عن النصوص والأعداء فانه لم يكن يتسامح معهم أبدا . وكان أقل شك في ولاء أى انسان كافيا لاعدامه . وكان مجرد الشك هو الدليل القاطع في نظر أغسطس وكان الاعدام هو عقوبته المفضلة . ولقد أمر باعدام فارس يدعى بيناريوس لا لشيء سوى أن الأخير كان يستمع باهتمام شديد الى احدى خطبه ، كما انه كان يدون فقرات من الخطبة على لوح من الشمع .

ولقد بلغت قسوة أغسطس حدا جعل صديق عمره «مايسيناش» يرتاع من أحكام الاعدام التي راح يطلقها واحدا بعد الآخر ، في القضايا التي كانت تعرض عليه ذات يوم . ولم يفلت متهم واحد يومها من حكم الاعدام (١) ، فتناول مايسيناش لوح الشمع وكتب عليه «كفى أيها الجزار» ثم قذف باللوح بين أحضان أغسطس .

ولقد قيل عن أغسطس انه كان يزيل شعر ساقيه بواسطة صدفة بحر حادة الحواف . وقيل عنه انه نتاج علاقة جنسية بين ثعبان خرافى وبين والدته (ذات ليلة في معبد أبوللو) . الأمر الذى نتجت عنه اصابته بمرض جلدى شديد كان يعرّمها من الاستمتاع بالحمام (٢) .

(١) هذه هي طبيعة الطغاة في كل زمان ومكان . والعمل لمجرد الشك كان تقليدا تابعا لدى أباطرة الرومان . وكذلك كان يفعل حنكيزجان وخلفاؤه ، والحاج بن يوسف وأبو مسلم الخراساني وحتلر وسائر الطغاة .

(٢) غالبا ، كان هذا المرض هو مرض الصنفية .

وقيل عن أغسطس أيضا أنه كان - حتى في شيخوخته - يهوى افتضاض العذارى وان ليفيا كانت تزوده بحاجته منهن -

ولقد قيلت عنه أشياء أخرى ، ثبت أنها غير صحيحة •
ومع كل ذلك فانه من الحقائق الثابتة أنه استطاع هو ومعاونوه أن يبنوا أقوى امبراطورية عرفها العالم وأطولها عمرا كذلك •

وكان الرجل العظيم الآخر • الذى ظهر خلال طفولة تيبيريوس ، هو مارك أنتونى • وعندما قتل قيصر كان أغسطس غائبا عن روما • وكان أنتونى جنديا متمرسا ورجلا ناضجا فى الوقت الذى كان فيه أغسطس مايزال فى الثامنة عشر من عمره • ومع أن أنتونى أصيب بصدمة مروعة حين علم أن قيصر قد اختار أغسطس وريثا وحيدا له ، فانه لم يتردد فى التصدى لقتلته ، باعتباره أقرب وأحب الأصدقاء الى قيصر •

وعندما وصل أغسطس الى روما ، كان مارك أنتونى قد استطاع أن يعزز نصرا كبيرا •

فقد كان أستاذا فى فن الاخراج والتمثيل ، ولذا فانه أقام هيكلا خشبيا لفينوس فى ليلة واحدة • وفى الصباح التالى عرض جثة قيصر فى الهيكل ، وعرض الى جوارها تمثالا لقيصر من الشمع ، وكان التمثال يمج دما ساخنا من ثلاثة وعشرين جرحا • ومن فوق المنصة ألقى أنتونى مرثية بارعة ألهمت قلب روما بالأسى والغضب • ولقد بلغ من ثورة الجماهير أنها أشعلت النار فى الهيكل - تعبيرا عن حزنها على

قيصر - ثم راح الجنود يلقون برماحهم فى النار • وراحت النبيلات يتبرعن من أجل الانتقام من قتلة قيصر ، حتى أنهن تبرعن بكل مجوهراتهن ومن فوقها أيضا ثيابهن الخارجية • ولقد أفزح ذلك المنظر قتلة قيصر ففروا من روما •

وعندما قتل قيصر كان أنتونى مفلسا ومدينا بما لا يقل عن مليون دولار ولكن عندما وصل أغسطس ليتسلم ميراثه كان أنتونى قد سدد ديونه • أما تركة قيصر - أو على الأصح كل الممتلكات التى كانت قابلة للبيع بسرعة - فانها كانت قد اختفت •

وبعد أن كان أنتونى هو أقرب أصدقاء قيصر الى الخطر . فانه صار آمنا كما أنه صار غنيا • وبذلك التفت الجماهير والأصدقاء من حوله • وبطريقة أو بأخرى ظهرت - أو لفقت - أوراق منسوبة الى قيصر • وكانت تلك الأوراق تشتمل على وصايا وهبات عديدة لأصدقائه ، وعلى رأسهم مارك أنتونى بالطبع •

وبطبيعة الحال فان أغسطس الشاب كان يحترق غيظا • وكانت لديه أسئلة كثيرة محرجة عن مصير ميراثه • ولكن الوقت لم يكن مناسبا لالقاء هذه الاسئلة • فقد كان يحتاج الى مارك أنتونى بقدر ما كان هذا يحتاج اليه • وكان بروتوس وكاسيوس يجمعان الجيوش ويستعدان للمعركة الفاصلة • وبعد معركة فيليبى سقط آخر علم للجمهورية • وعندئذ لم يكن أغسطس بحاجة الى القاء أى أسئلة • فقد كان قد عرف كل شيء • • عرف أن حليفه كان محتالا كبيرا •

وفى خلال حياته ، أنفق انتونى اكثر من أربعة ملايين

دولار • وهذا قدر أكبر من ان ينسب الحصول عليه الى السرقة وحدها • وصحيح أن أنتوني كان قد باع كل ما أمكنه ان يضع يده عليه من ثروة قيصر ، ولكنه كان قد استطاع ان يضع يده على أغنى أجزاء الامبراطورية • فبعد معركة فيليبى ، وباعتباره أقوى المنتصرين ، اختار لنفسه كل ممتلكات روما الشرقية التى كانت تشتمل على أغنى المستعمرات ، وكان من بينها مصر ، التى استولى عليها أنتوني واستولى كذلك على ملكتها «كليوباترا» •

وبدئى أن الكثير من هذه الملايين الأربعة قد صرف على الجيوش التى كان يقودها أنتوني • ولكن مبالغاً كبيرة منها راحت على لذاته • وفى مجال اللذات كان أنتوني أستاذا • فقد كان يحب الطعام الفاخر والمعيشة المرفهة • وكان يحب النساء — طبعاً — ولكنه كان أيضاً يحب الغلمان • وكان يحصل على الترف واللذة أينما وحيثما كانا •

ولم تكن تلك الرذائل جديدة على روما • فقد كان يوليوس قيصر نفسه مشهوراً بأنه «زوج كل امرأة وزوجة كل رجل» • ولكن مشكلة أنتوني كانت تتمثل فى أنه كان يمارس ذلك على نطاق كبير • فقد كان يحتفظ بحريم — من الجنسين — لا يقل تعدادة عن ٤٠٠ • وكان طبائخه يعدون له عدداً ضخماً من الأطباق كل يوم • وطبيعياً أنه كان لا يتناولها كلها وإنما كان يؤلف وجباته من أفضلها • وكان يعاقب بقسوة على الطعام الرديء الطهى • ولكنه كان أيضاً كريماً مع الطاهى الذى يجيد عمله • ولقد كافأ كبير الطهاة بفيلا فاخرة على مهارته فى تقديم طبق متفوق ذات يوم • وكانت

كليوباترا تعرف فيه هذا النهم ، ولذا فانها نجحت فى ارضائه
بالمنتقى من أصناف الطعام .

وكانت كليوباترا (آخر ملوك البطالمة) اغريقية الأصل
تماما . وكانت تعرف مافيه الكفاية عن الرومان الغزاة .
وكان يوليوس قيصر قد غزا مصر ، وغزا كذلك كليوباترا
وأنجب منها ولدا هو قيصرىون . ولم تكن كليوباترا بالبارعة
الجمال ولكنها كانت شقراء ، وكانت قوية الشخصية ولامعة
الذكاء . ولذا فانها استطاعت أن تغزو أنتونى وأن تصبح
سيدته وأم توأمين له . ثم أصبحت بعد ذلك زوجته . وكان
على أنتونى أن يتخلص من زوجته الرومانية قبل أن يتزوج
من كليوباترا . وكانت تلك غلطة فادحة منه . لأن تلك
الزوجة كانت هى أوكتافيا (شقيقة أغسطس) . ولقد كتب
له أغسطس مستنكرا أفعاله . فرد عليه أنتونى «ماذا دهاك
حتى صرت تعترض على علاقتى بكليوباترا ؟ انها زوجتى .
فماذا عنك أنت ؟ هل أنت مخلص لليفيا ؟ » . اننى أقدم لك
تهائلى لو أنك كنت - عندما تصلك هذه الرسالة - فى
مخدعها هى بدلا من مخدع ترتوليا أو تيرينتلا أو روفيليا أو
سالفيا أو تيتسينا» .

ولم يرتح أغسطس لهذه الرسالة . فقد كان فى الثلاثين
من عمره ، وكان قد اكتمل اقتناعه بأن اقتسام السلطة خطأ
فى خطأ وأن روما لايمكن تجزئتها وانه يجب أن يحكم
الامبراطورية رجل واحد ، وأنه هو هذا الرجل .

وفى ذلك الوقت توفى تيبيريوس الأب ، وكان عمر ابنه
الأكبر تسع سنوات . وقد ذهب تيبيريوس وشقيقه دروسوس
(٥ سنوات) عندئذ ليعيشا مع أمهما ليفيا ، فى قصر

أغسطس . ولقد قام تيبيريوس بدوره المطلوب في جنازة والده . اذ وقف في الهيكل وألقى مرثية ناجحة . ولم يكن ذلك غريبا ، لأنه كان قد تلقن الدين والعلم والأدب على أيدي أساتذة ممتازين من الاغريق والرومان . وفي قصر أغسطس حصل على أساتذة أعرق وأفضل . ولعله كان ، في ذلك الوقت ، هو أفضل الصبية علما وأدبا في روما كلها .

وكانت جوليا ابنة أغسطس من زوجته السابقة «بكريبونيا» تعيش أيضا في قصره وكانت قد ولدت قبل دروسوس ببضعة أشهر . ولذا فان الأطفال الثلاثة راحوا يلعبون معا ويشتركون مع أغسطس وليفيا في الحفلات والمناسبات العامة ، وكانت تلك الحفلات والمناسبات كثيرة جدا .

ولم يكن مطلوبا من جوليا أن تتابع دراساتها بنفس القدر المطلوب من الولدين . ولذا فان جهد المعلمين كان مركزا على تيبيريوس ودروسوس ومارسيلس (ابن أكتافيا - شقيقة أغسطس - من زوجها الأول ، وهو غير مارك أنتوني) . وكان على الثلاثة أن يكملوا دراساتهم بكل جد ، وان اختلفت أساليبهم في التحصيل . فكان تيبيريوس يتابع دروسه بجهد واهتمام ، وكان دروسوس يتابع دروسه بغاية اللطف أما مارسيلس فكان يميل الى التهريج . وكان السبب في اصرار أغسطس على تعليمهم على أعلى مستوى هو أنه كان يرى أن الامبراطورية قد أصبحت ملكا خالصا له وبالتالي فان حاكمها من بعده يجب أن يكون أحد ورثته . وكان هؤلاء الثلاثة هم ورثته الطبيعيون وكان أغسطس مصمما على أن يجعل خليفته كفوًا للحكم .

ولكن كان على أغسطس أن يبدأ أولا بإحكام قبضته على
الامبراطورية وأن يتخلص من أعدائه ومنافسيه .

ولذا فإنه أجبر ليبيدوس (ثالث المنتصرين) على الانزواء
والبعد عن الحياة العامة . ثم وجه التفاتة الى سكستوس
بومبي ، الذى كان - كما قلنا - يعتقد أنه من سلالة نبتيون
وكان يتظاهر بالجهل باللاتينية ويرتدى ملابس خضراء اللون
بدلا من الملابس الرومانية البيضاء . وأخيرا فإنه كان يتعرض
بأساطيله للسفن التجارية القادمة بالتموين والقمح من
المستعمرات (كان الأثرياء من الرومان يستنكفون أن يكون
زراعا للحبوب) .

وقد بنى أغسطس أسطولا ضخما ثم أسلم قيادته لماركوس
أجريبا ، الذى كان قائدا بحريا بارعا (١) وسياسيا ماهرا ،
وكان يقيم الحمامات العامة للشعب مجانا ، وكان يتمتع
الشعب بحفلات المصارعين الدموية .

وقد استطاع ماركوس أجريبا أن يلحق بومبي دروسا
يليفة وأن يهزم أسطوله فى معارك متتالية وأن يفتح الطريق
للسفن القادمة بالقمح والتموين من مصر وأفريقيا . وبعدئذ
ألقي أغسطس بثقله كله فى اتجاه مارك أنتونى . وكانت
المشكلة هنا هى أن روما كانت قد فقدت الكثير من رجالها ومن
ثرواتها فى الحروب الأهلية السابقة ولم يكن من السهل على

(١) كان أجريبا هو قائد الأسطول الرومانى الذى انتصر على أسطول أنتونى وكليوباترا
فى معركة أكتيوم (٢ سبتمبر سنة ٣١ ق م) . وقد بدأ أجريبا المعركة بالنهقر بجناحه
اليسر فتبعته سفن أنتونى (وكانت ثقيلة) وتناثرت من خلفه وعندئذ استدار أجريبا
(سفننه الخفيفة) وأطبق عليها بجناحيه ، وأغرقها الواحدة بعد الأخرى .

أحد أن يشعل حرباً أهلية جديدة • وكان أغسطس يريد أن يحارب أنتوني • وكان واثقاً من أنه سوف ينتصر عليه • ولكنه كان يريد أن يكون أنتوني هو البادئ • أما أنتوني فإنه كان بدوره لا يريد أن يبدأ بالحرب ولذا فإنه لم يبال بوسائل الاستفزاز التي راح أغسطس يلاحقه بها •

وطلب أغسطس نصيحة ليفيا • وطوال حياته ، كان أغسطس يأخذ بنصائح ليفيا في مشاكله ومشاكل الدولة ، ولم تخذله ليفيا قط • وكانت نصيحة ليفيا في هذه المرة هي «لا تعلن الحرب على أنتوني وإنما اعلنها على كليوباترا • فهي ليست رومانية • ولن يرفض الرومان محاربتها وليفعل أنتوني بعد ذلك ما يشاء» •

وأعلن أغسطس الحرب على كليوباترا (١) • وبديهي أن أنتوني اختار أن يحارب إلى جانب زوجته • واشتعلت الحرب • وراحت الكتائب الرومانية تتقاتل في سبيل السيطرة على الامبراطورية •

والتقى الغريمان في معركة أكتيوم •

ويقع رأس أكتيوم على خليج امبراسيان في اليونان • وكانت جيوش أنتوني تحتل أحد شاطئ الخليج ، وكانت جيوش أغسطس تحتل الشاطئ الآخر • وكانت الأرض من حول الخليج لا تسمح بالمناورة وحرية الحركة ولذا فإن كلا

(١) شن أغسطس حرباً دعائية مائلة ضد كليوباترا • ونجح في تصويرها بصورة العدو لروما والمرأة المتهتكة المائلة • ولقد تأثر الغرب كله بهذه الدعاية وما يزال حتى الآن يرى كليوباترا على ضوءها • وقد دافعت أقلام قليلة عن كليوباترا وكان من بينها فلم أحمد شوقي (في مسرحية « مصرع كليوباترا ») •

من الجيشين بقى فى مكانه ثم راح يقذف الجيش الآخر بالشتائم • وظهر أسطولوا الفريقين فى المعركة • وكان أسطول روما مكونا من سفن ذات شراع واحد • وكانت هذه السفن تعتمد فى الحركة والمناورة على مجاديفها وكانت تلك يتكون من سفن ضخمة • وكانت سفينة مارك أنتونى بالذات تحتوى على • ١ طبقات من المجاديف ، وكان عدد المجدفين بها من العبيد لا يقل عن خمسمائة ، بالإضافة الى مائتى مقاتل على سطحها •

وكان تكتيك القتال البحرى يعتمد فى ذلك الوقت على مناورة التناطح ثم الالتحام والقتال يدا بيد فوق أسطح السفن • ولم يكن ذلك مناسبا لأغسطس فى مواجهة الضخامة التى كانت تتصف بها سفن الاسطول المصرى ، التى كانت مزودة أيضا بدروع من النحاس • ولذا فان أغسطس لجأ الى تكتيك جديد • اذ راحت سفنه تطلق بقذائف المنجنيق على سفن أنتونى وكليوباترا من بعيد • وكانت كل سفينة مصرية تتعرض لقذائف ثلاث سفن رومانية فى وقت واحد من جوانب مختلفة • وكان بحارة السفن الرومانية يطلقون أيضا السهام المشتعلة وكرات اللهب بالآلاف •

ونجح هذا التكتيك فراحت النيران تشتعل فى سفن أنتونى وكليوباترا • ولقى آلاف الرجال مصارعهم • • اختناقا بالدخان أو احتراقا باللهب أو غرقا فى الماء • ومن كان منهم ينجو من ذلك كله فانه كان يقع بين أنياب القرش التى راحت تتقاطر على الخليج • ومع أن القتال كان يتوقف فى العادة عند غروب الشمس فانه استمر فى أكتيوم جزءا

من الليل • ولقد نجح أسطول أنتوني وكليوباترا في إيقاع
خسائر ضخمة بالأسطول الروماني • ولكن النصر في النهاية
كان للأخير •

وتحولت سفينة كليوباترا إلى مدخل الخليج واتجهت إلى
مصر وتبعها سفينة أنتوني • وبدأت السفن الباقية من
أسطولهما تستسلم • ومع أنهما عادتا إلى مصر سالمين إلا أنهما
كانا قد فقدتا كل شيء • وصار أغسطس سيذا على
العالم •

الفصل الرابع

الحياة فى روما

كان تيبيريوس قد بلغ الثالثة عشر من عمره عندما كان أغسطس قد حصل على النصر النهائى فاستولى على مصر ، وانتحر أنتونى وكليوباترا •

وكان الرومان يحتفلون على نطاق هائل بانتصاراتهم ، بالموكب والاستعراضات وحفلات المصارعة (كان الأسرى يجرى تدريبهم فى مدارس المصارعين ، ثم يدفعون الى ساحات الملاعب على أن يقاتلوا بعضهم حتى الموت ، وكان بعضهم يدفع وهو أعزل لكى تفتتسه الوحوش فى تلك الملاعب) (١) ، وكانت تلك الاحتفالات تستنزف مبالغ ضخمة وكان المفروض أن يدفع المحتفى به تلك المبالغ • ولكن ذلك لم يكن بالأمر الصعب لأن القائد المنتصر كان يحصل من الغنائم على ما يكفل له ثراء فاحشا • ومن الجانب الآخر فانه كان يحصل من تلك الاحتفالات على المجد والشهرة ، وكان يكسب من أصوات الجماهير ما يتيح له الحصول على أكبر المناصب •

(١) انظر كتاب « الموت فى الملاعب الرومانية » للمعرب •

وعلى نفس الخط سار أغسطس فأقام احتفالات هائلة وكان موكب نصره حافلا بالقنارات وبالأسرى وبالغنائم . وكان يركب عربة يجرها جوادان مطهمان . وكان تيبيريوس يمتطى الجواد الأيمن ، بينما كان مارسيلس يمتطى الجواد الأيسر .

ومن خلف المركبة كانت تسير مركبة تحمل تمثالا لكليوباترا (وعلى صدرها نموذج للشعبان ، الذى انتحرت به) . وقد فعل أغسطس ذلك لانه كان حريصا على اقناع الشعب بأن عدوه كان هو كليوباترا فقط ، وأن الحرب لم تكن - كما هى فى الحقيقة - حربا بين روماني وروماني وانما كانت بين روما وكليوباترا فقط .

وكان تيبيريوس فى ذلك الوقت قد أصبح فتى مرموقا ، تبدو عليه علامات الذكاء والحيوية . كما راحت ترتسم على وجهه وصفاته تلك الملامح التى ميزته فيما بعد . فقد كان على الأغلب هادئا ومنطويا على نفسه ، وكان مؤدبا ولكنه كان يستطيع أن يكون شرسا اذا غضب . وكان من الواضح أنه كان يفتقر الى الحب ، ومن المؤكد أن ربيبه أغسطس لم يكن يمنحه شيئا منه . ولقد تنبأ واحد من معلميه (تيودوروروس الجادرانى) بمستقبله حين قال عنه انه «طين معجون بالدماء» . أما عن قدرته الخطائية المبكرة فانها ذوت بسبب ميله للعزلة والبعد عن الناس .

وكانت أمه ليفيا تحبه بغير شك ولكنها كانت مشغولة بأعبائها الضخمة وبالعامل على الاحتفاظ بحب زوجها . فقد كان عدم انجابها لأطفال منه نقطة ضعف بطبيعة الحال . ولذا فأنها - بعد فضيحة زواجها من أغسطس - عاشت فى

جهد متصل من أجل ادارة بيتها وراحة زوجها وتربية ولديها (تيبيريوس ودروسوس) وتربية جوليا (ابنة أغسطس) .
وبالجهد المخلص المتصل استطاعت ليفيا أن تنجح فى ذلك كله وأن تصبح الشريك المخلص لأغسطس فى الحكم . ولكنها أيضا كانت تعيش فى تواضع وتحافظ على سمعتها . وليس معنى ذلك أنها كانت متقشفة فقد كان لديها جوار كل واجبهن هى طى ملابسها وجوار متخصصات فى حفظ هذه الثياب . وكان لكلبها المفضل جارية مختصة به فقط .
وكان لديها جوار متخصصات فى العناية بأذنيها ، وجوار متخصصات فى تسريح شعرها . وكان لديها عبيد يصنعون الجواهر وعبيد يصنعون العطور . وهذا كله بالإضافة الى الجوارى المختصات بمعاونتها على ارتداء ثيابها وعلى كتابة وقراءة رسائلها . وبستمائة من العبيد ، كانت ليفيا تعيش عيشة متواضعة ، بالمقارنة الى زوجات بعض النبلاء اللاتى كن يمتلكن الآلاف من العبيد . وكانت قصور أغسطس تحمل نفس الطابع من التواضع . وكان قصره (الذى يقع فوق تل البالاتين – والذى اقتبس منه اسم «بالاس» علما على كل قصر –) لا يحتوى على رخام أو موزايكو .

وكان تيبيريوس يحب والدته . ولكن شاغلها – التى كانت تمثل كل فضائل المرأة الرومانية – لابد وأنها كانت تبعدها كثيرا عنه . ويمكن لنا أن نتخيل مدى مشاغلها اذا علمنا أنه بالإضافة الى ادارة البيت الكبير (الذى كان يحتوى على آلاف الخدم والحجبات والحاشية – بالإضافة الى العبيد) كان عليها أن تعاون زوجها فى شئون الحكم .

وفى ذلك الوقت لم تكن التخصصات الوظيفية التى

نعرفها الآن قد ظهرت بعد - فقد كان على أغسطس أن يقوم - الى جانب أعبائه فى الحكم وقيادة الجيوش وادارة المستعمرات - بالبت فى القضايا ، لأنه كان هو أيضا القاضى الأكبر - وكان من حق المواطنين أن يرفعوا قضاياهم وشكاواهم اليه مباشرة - ومن بعد ذلك فانه كان أيضا كبير الكهنة للدين الرومانى ، وكان عليه أن يؤدى الطقوس المطلوبة منه بهذه الصفة -

ومن هذه الصورة تتضح أسباب انطواء تيبيريوس وانخماسه فى تحصيل العلم والأدب حتى نبغ - بمقياس العصر - فيهما - ومن حياة القصر تعلم تيبيريوس أيضا الكثير - فقد كان القصر هو مهبط زوار روما من الملوك والحكام الحلفاء أو التابعين مباشرة للامبراطورية - وكان الرسل والامراء والسفراء يتقاطرون على القصر من كل مكان، مثل ألمانيا وانجلترا ومصر وفلسطين وسوريا واسبانيا واليونان والمغرب - ولقد رأى تيبيريوس كل هؤلاء الناس وخاطبهم واستمع اليهم وتجادل معهم - ومن أغسطس تعلم تيبيريوس كيف أن المصلحة وحدها هى المقياس الصحيح للعلاقات .. ، فلم يكن أغسطس يبالي بأن يصادق عدوا أو يعادى صديقا مادامت له مصلحة فى ذلك - كما أن تيبيريوس تمارس أيضا بطقوس الديانة وأساليب الحكم - وذلك لأن أسرة أغسطس كانت تشترك كلها فى تلك الطقوس ، وحتى التماثيل التى كانت تقام لقيصر ، كانت تضاف اليها تماثيل لأفراد أسرته بما فيهم تيبيريوس - وحتى القتال تدرب عليه تيبيريوس وهو ما يزال صبيا - فقد كانت تقام فى كل عام معركة يتقاتل فيها الصبية احياء لذكرى معركة طروادة -

ومع أنها كانت معركة تمثيلية فان الصبية كانوا يحيلونها الى معركة حقيقية فى بعض الأحيان • وكان تيبيريوس يتولى قيادة أحد الفريقين • وبعد أن أصيب صبيان من أبناء أعضاء مجلس الشيوخ باصابات خطيرة فى تلك المعارك ، ألغيت نهائيا •

وطبىعى أن تيبيريوس كان يستمتع بالظهور فى تلك المناسبات وطبىعى أيضا أن يكون حلم الحصول على العرش قد راوده بشكل أو بآخر •

ولكن كان من الضرورى لمن يريد أن يصبح امبراطورا أن يكون أولا رجلا ذا أهمية • وكان تيبيريوس يطمع فى أن يكون رجلا عظيما وكان يرغب فى أن يتبع الطريق التقليدى ، وهو الجندية • ومن بعدها ينتقل الى المناصب القيادية فى حكومة روما • وكانت هذه المدينة تحتاج الى جهاز حكومى ضخم ، لأنها كانت تتضخم بدورها من يوم الى يوم • وكان عدد سكانها فى ذلك الوقت يتجاوز نصف مليون نسمة • وكانت المدينة تختنق بسكانها ، لأن وسائل المواصلات لم تكن قد تقدمت الى الحد الذى يتيح انشاء الضواحي • وكانت بيوت الفقراء تتعرض للسقوط وللحرائق باستمرار • وكان استخدام العربات فيها ممنوعا طوال النهار من فرط الازدحام • وكانت المدينة تعج باللصوص والقوادين والمحتالين والقتلة والمجرمين من كل نوع • وكان السير فيها ليلا من الخطورة بحيث كان لابد من اصطحاب حرس مسلح والا تعرض السائر لخطر السلب أو القتل •

ومن الجانب الآخر فان الاحتفالات والأعياد كانت لاتنقطع • فكان يقام فى فبراير احتفال لوبركاليا ، حيث

كان يجرى الرجال فى الشوارع وهم عراة ويضربون من تصادفهن من النساء بأسواط من جلد الماعز . . وذلك جلبا للخصوبة . وفى ابريل كان يقام احتفال باريليا ، وفيه كان الناس يقفزون من فوق النيران . وفى مايو كانت عذارى الهيكل يلقيان بتمثيل من القش فى نهر التيبر لارضاء اله النهر . وفى يونيو كان يحيى عيد آلهة الشراء . وفى أواخر ديسمبر كان يجرى احتفال يستطيع فيه كل انسان أن يفعل أى شئ يخطر على باله من عبث أو تهريج . وفى رأس السنة كانت الاحتفالات تفوق كل خيال فى فخامتها أو ترفها ، وكان الناس يأكلون فيه عسل النحل ، وكان الأغنياء يقدمون هدايا ثمينة جدا للأباطرة (وكان بعض الأباطرة ينتظر ذلك اليوم بفارغ الصبر لكى يوازن ميزانيته بتلك الهدايا) . أما عن المعابد والملاعب فكانت بالمئات . وقد بقى منها معبد أجريبا «البانثيون» حتى اليوم . وكان أغسطس من هواة البناء والتعمير ، ولذا فانه أقام الكثير من المباني الفخمة فى روما ، وفى ذلك قال «اننى وجدت روما مبنية بالطوب ، وتركتها وهى مبنية بالرخام» .

وسواء أكان تيبيريوس مرشحا للعرش أم لم يكن ، فانه كان من المؤكد أنه كان يقف على أعلى قمة فى روما . فقد كانت تلك المدينة أشبه بالجيش الذى يوجد فيه الجندى وضابط الصف والضابط والجنرال . وكان تيبيريوس جنرالاً ، حتى فى ذلك السن الصغير .

وفى روما كان نظام الطبقات حقيقة واقعة وقانونية . وكان تيبيريوس ينتمى الى أعلى طبقة بغير شك . وكانت أعلى طبقة هى طبقة السناتو (الشيوخ) . وكانت

صفة «الشيوخ» معنوية أكثر منها مادية بمعنى أنه كان يمكن للصبي أن يكون سناتورا (شيخا) مادام ينتمى الى تلك الطبقة . وكان السناتو ينتخب كل عام قنصلين لادارة الحكم . ولم تكن مدة القنصل لتجدد أكثر من ثلاث مرات . ولكن السناتو كان يسيطر على القناصل في عهد الجمهورية . وكانت الطبقة التى تلى طبقة السناتو هى طبقة الفرسان «اكويستريان» . وكانت الشروط المطلوبة فى الفارس هى أن يكون مالكا لما يعادل عشرين الف دولار ، وبديهي أن ذلك كان يعنى أن المال (وليس الأصل) هو مقياس الانضمام الى تلك الطبقة . وكان للفرسان برلمانهم الخاص ، الذى كانت سلطاته أقل بكثير من سلطات السناتو .

وكان الفارس يلبس خاتما من الذهب وكان قميصه مطرزا بشريط قرمزي . وكذلك كان قميص السناتور (وان كان شريطه أبيض) . وكان الشريط القرمزي محرما على الطبقات الأخرى .

وكانت الطبقات التالية هى طبقة المواطنين والطبقة المتوسطة وطبقة العبيد . ولم يكن لتلك الطبقات لباس معين . وكان البعض قد فكر فى تمييز العبيد بأردية أو علامات خاصة . ولكن العقلاء تنبهوا الى أن ذلك يؤدى الى المتاعب ، اذا تبين العبيد ضخامة عددهم . ومن بعد ذلك كانت طبقة الرجال الأحرار . ولم يكن أهل هذه الطبقة من الرومان . وانما كانوا من العبيد المحررين أو من أبناء الشعوب الأخرى . وكان بعض العبيد المحررين يتمكن من تكوين ثروة . ولكن معظمهم كان يعيش فى أكثر من الفقر المدقع ، لأن القانون الرومانى كان يبيع للسيد أن يعتق

عبده بعد أن يشترط عليه أن يدفع له معظم دخله طوال حياته .

وعن الطبقة المتوسطة نلاحظ انها لم تكن من طراز الطبقة المتوسطة فى الحاضر . وذلك بمعنى أنها كانت تتكون من أبناء العائلات الكبيرة التى آخنى عليها الدهر ، ولذا فانهم كانوا أعلى من طبقة العامة ولكن غالبهم كان أفقر من العامة بكثير .

ولم يكن للعبيد أى حق من الحقوق، وكان للسيد أن يقتل عبده حتى بغير سبب . وحتى حق الطعام والمأوى لم يكن للعبيد . بمعنى أن السيد لم يكن مجبرا على اطعام عبده أو ايوائهم ، وكان يستطيع أن يطلب من العبد أن يعمل للحصول على القوت ثم يستولى بعد ذلك على دخله . وكان من حق السيد أن يجلد عبده أو يجبههم أو يهتك أعراضهم . بل انه كان من حقه أن يأكل لحم عبده .

وعلى سبيل المثال ، كان «فيديوس بوللو» يذبح العبيد ويطعم الأسماك لحومهم ، ثم كان هو يأكل تلك الأسماك . وأخيرا فان العبد لم يكن له أى حقوق على زوجته أو أولاده، وكان القانون يعتبر ابن الجارية عبدا حتى ولو كان أبوه من الأحرار . وأخيرا فان العبد كان محروما تماما من أى حق فى رد عدوان سيده عليه . وكان العبد الذى يقتل سيده يعدم فوراً هو وجميع عبيد ذلك السيد .

وكان العمل فى روما موكولا كله الى العبيد (أكثر من ثلاثمائة ألف فى روما وحدها) . وكانت سواعد العبيد هى التى تبنى البيوت وتجذف فى السفن وتصنع الثياب

والطعام وتعمل فى المناجم وتنتج كل السلع والمصنوعات والمزروعات • ومع ذلك فكان هناك من العبيد من يقوم بأعمال هينة مثل اعداد الحمام وتعطير مياهه • وكان بعضهم متخصصا فى الفنون (الغناء - الرقص - النحت - الرسم) • وكان البعض الآخر يعيش فى رفاهية نسبية لأنه كان يقوم بتربية وتعليم أبناء سيده • وكان العبد المشوه مطلوباً للتسلية (القزم - الأعرج - الأحمب •• الخ) ، وكان ذلك النوع رائجا الى حد أن بعض السادة كان يشوه بعض عبيده خصيصا لهذا الغرض •

ومن أجل اشباع شهوات السادة كان العبيد (من الجنسين) رهن الاشارة ، وكانت توجد طبقة معينة من ملاك الجوارى هى طبقة «اللينو» ، وكان أفرادها يملكون ويديرون عددا كبيرا من بيوت البغاء • وكان عقاب العبد الهارب هو الصلب أو العمل الشاق جدا فى مؤسسة كانت تسمى بالأرجستولم • وكان العبيد يفضلون الصلب على العمل فيها •

ومع ذلك فقد كان هناك من السادة من يعطف على عبيده ويعالجهم عند المرض ويبكيهم عند الموت •

الفصل الخامس

الجنرال الشاب

فى عام ٢٧ ق م كان تيبيريوس فى الخامسة عشر من عمره . وكان فتى طويلا قويا عريض الأكتاف . وكانت الطراوة تبدو على ملامحه . ولكن تلك ظاهرة مألوفة بين الفتيان . وكان أنفه رومانيا مثل أنف والدته .

وكان أبناء العائلات الكبيرة يتعلمون فنون القتال والجنس مبكرا . وكانت لدى تيبيريوس جواريه المخصصات لتعليمه فنون الجنس وتدريبه عليها . وكان لديه العبيد المخصصون لتدريبه على فنون القتال . ومع أنه كان أصغر من سن الزواج فانه لم يكن أصغر من أن يفكر فيه .

وكان الرومان يزوجون أبناءهم وبناتهم مبكرا ولكنهم كانوا لا يتركون لهم حق الاختيار . لأن الزواج كان ارتباطا بين العائلات أكثر منه علاقة خاصة بين الزوج وزوجته .

وبالنسبة لتيبيريوس فقد كانت هناك — مثلا — جوليا «ابنة أغسطس» . فقد كانت فى الحادية عشر ، أى قريبة

من سن الزواج ، ثم أنها كانت ابنة الامبراطور وكانت أيضا
مرحة وجذابة . وعن تيبيريوس نفسه فان كان لايميل
للمرح . ولكنه كان مثقفا على مستوى عال . وكان يجيد
الاغريقية ويحب الأدب الاغريقي . وكان قد درس كثيرا من
علوم عصره مثل علم الفلك وعلم تفسير الأحلام . وكان ينظم
بعض الشعر ويجيد كتابة الخطب والرسائل .

ولكى تكتمل شخصيته كان لابد له من ممارسة حياة
الجنودية . وفي نهاية عام ٢٧ ق م صحبه أغسطس معه في
رحلة تفتيش على القوات في بلاد الغال . وكذلك صحب
مارسيللى . ولم يشهد تيبيريوس قتالا في تلك الرحلة . ولعل
قصد أغسطس كان هو أن يريهما مدى اتساع الامبراطورية
ونظم حكم البلاد المحتلة .

ولقد راح أغسطس ينتقل (ومعه تيبيريوس
ومارسيلس) من نقطة خارجية الى أخرى . وراح ينشئ
المدارس لتعليم اللغة اللاتينية هناك ، ويضع نظم تحصيل
الضرائب ويفتش على القوات ، ويعيد بناء المدن المدمرة .
وعندما عاد الصبيان الى روما كانا قد أصبحا رجلين . وكان
عليهما أن يتدربا على أمور الحكم .

وقد كان مارسيلس في الثامنة عشر من عمره ، وكان
شابا لامعا ونشطا وكان يشعر بأهميته ، وكان الكل يحبونه ،
ولكنه كان أيضا قادرا على اجتلاب العداوات لانه كان سريعا
الى العدوان اذا ما هو استثير .

أما تيبيريوس فانه كان أقرب الى العزلة والانطواء ، كما
أنه كان صبوراً وكان قليل الكلام وحريصاً فيه ، لدرجة انه

كان يتوقف في وسط الجملة لكي يبحث عن اللفظ المناسب لما يقصده . ويقال انه أخذ ذلك الطبع من أغسطس الذي كان قد بلغ من حرصه أنه كان يؤثر أن يسجل ما يريد أن يقوله - حتى لزوجته - كتابة .

وقد منح أغسطس كلا من مارسيلس وتييريوس منصبا كبيرا . ولكنه أعطى مارسيلس شيئا أهم . فقد أعطاه جوليا ، زوجة له .

وكان الزواج مناسبة عظيمة . وقد فوض أغسطس أمر ترتيب شئون وحفلات ذلك الزواج الى قائده الكبير (وأهم رجل في الامبراطورية) ماركوس أجريبا . بطل معركة أكتيوم والمنتصر على سكستوس بومبي . ومن اللحظة الأولى اصطدم مارسيلس بأجريبا . ولم يكن أحدهما بقادر على أن ينتصر على الآخر ، فقد كان كلا منهما مقربا وأثرا لدى الامبراطور .

وكان أجريبا من الذكاء بحيث أنه لم يتردد في تنفيذ كل مطالب مارسيلس . وأكثر من ذلك أنه راح يتجنب اللقاء به . وفي نفس الوقت اتجه أجريبا بصداقته نحو تييريوس ، فقد كان يقدر ثقافته ويحب هدوءه . ومن هنا يوطد علاقته به . صحيح أن تييريوس قد لا يصبح امبراطورا ولكن من المؤكد أنه سوف يكون قائدا عظيما أو صاحب منصب حكومي كبير . كما أنه كان من المؤكد أنه يصلح صهرا لأجريبا . فقد كانت لأجريبا ابنة في الخامسة عشر ، هي فيبسانيا أجريبينا .

وقد درس أجريبا موضوع هذا الزواج مع أغسطس

وتيبيريوس • ووافق أغسطس أما تيبيريوس فقد كانت
قرحته طاغية ، لأنه كان يحب فيبسانيا •

وكما أشرنا من قبل ، فإن الرومان كانوا يفرقون بين
الزواج وبين غيره • فقد كان الزواج فى نظرهم صفقة
عملية ، لربط العائلات ببعضها ، أو للفوز بخير أم للابناء ،
أو للحصول على دويلة ضخمة • أما الجنس فإنه كان لهوا
مباحا (للرجال) ، ولم يكن فى حد ذاته هو هدف الزواج •
وعن الحب فإن الرومان كانوا يعتبرونه جنونا مطلقا • ولقد
كتب الشعراء ، مثل كاتالوس وأوفيد عن الحب ولكنهم لم
يتحدثوا عنه بصفته من عناصر الزواج وإنما بصفته عنصرا
نفسيا مطلقا •

ومع ذلك فإن الزواج على أساس الحب كان موجودا
بطبيعة الحال • وكان زواج أغسطس بليفيا مثلا على ذلك •
ولكنه على أى حال لم يكن منتشرا • وكان الرجل الذى يعلن
عن حبه لزوجته يصبح موضعاً للاستنكار كما لو كان من
مدمنى الخمر •

ولقد عاش الجميع (مارسيلس وجوليا ، وتيبيريوس
وفيبسانيا) فى قصر أغسطس • وحتى أجريبا ، انضم اليهم
عندما احترق قصره •

ولكن الجيرة بين أجريبا ومارسيلس كانت مصدر متاعب
للأول • لأن مارسيلس لم يكن يترك فرصة للاصطدام معه
وآلا ينتهزها • وكان مارسيلس حينذاك فى العشرين من
عمره ، وكان هو الوريث المحتمل لأغسطس • ولذا فإنه لم
ير سببا لمهادنة أجريبا • ولم يتوان أجريبا عن العمل على

اليعد عن مارسيلس ، فافتعل أسبابا تدعو الى سفره الى المقاطعات الشرقية وترك روما لمارسيلس .

وبينما كان أجريبا فى سفره اجتاح وباء التيفود روما . وكان مارسيلس من بين ضحاياه ، فمات به ، ومات معه أكثر من ١٠٠٠٠٠ روماني أيضا . وكان علاج التيفود الوحيد هو كمادات الماء المثلج وكذلك الحقن بالماء المثلج .

ولقد أصيب الامبراطور بالمرض منذ بداية الوباء . وتم استدعاء أجريبا على عجل . وعندما تبين الامبراطور مدى الخطر الذى كان يحقق بحياته ، فانه راح يبحث مع زوجته ليفيا فى أمر وراثة العرش . ومن أول وهلة رفض أن يرشح تييريوس أو شقيقه دروسوس ، وحتى مارسيلس (ولم يكن قد أصيب بالمرض بعد) كان مرفوضا . فمن وجهة نظر أغسطس ، كان هؤلاء مايزالون صفارا على الحكم . وكان أغسطس قد عانى الكثير من المتاعب عندما تولى الحكم وهو مايزال شابا تنقصه الخبرة ويفتقر الى الأصدقاء والحلفاء الناضجين .

واتخذ أغسطس قراره . فاستدعى أجريبا وعهد اليه بالعرش من بعده وأعطاه خاتمه .

ولكن المعجزة حدثت ، وعوفي أغسطس من المرض . ولعل علاج طبيبه الاغريقى أنتونيوس موسى (بالكمادات والحقن المثلجة) كان له دخل فى الشفاء . وقد استعاد أغسطس صحته تماما فى وقت قصير . وأعاد أجريبا الخاتم الى أغسطس ثم رحل ثانية الى الشرق . ومن بعد أغسطس أصيب

مارسيلس بالمرض ومات تاركا من خلفه جوليا وقد أصبحت
أرملة .

ولم يكن من المناسب طبعاً أن تبقى جوليا أرملة . كما
أن أغسطس لم يجد لها كفوًا من بين الشباب . ولذا فانه جمع
بين مصلحتها ومصلحة الامبراطورية في أن واحد ، فزوجها
بأجريبا . وكانت جوليا في الثامنة عشر ، وكان أجريبا في
الأربعينات من عمره .

وكان أجريبا في سن الهدوء والرصانة أما جوليا فانها
كانت تتفجر بالحياة وبالشباب . وحين لم يستطع أجريبا
أن يعوضها عن شباب وحيوية مارسيلس فانها راحت تبحث
عنهما بنفسها . ومع أن سلوك جوليا المشين كان يهم
تيبيريوس بصفته شقيقها (بحكم زواج أمه ليفيا من أغسطس)
وبصفته صهرها لها (بحكم زواجه بابنة زوجها «فيبسانيا»)
فانه لم يهتم بذلك السلوك ، فقد كان سعيدا مع فيبسانيا .
ولقد عاش تيبيريوس حتى سن الثامنة والسبعين ، ولكنه لم
يحصل على السعادة في تلك السنين الطويلة الا لمدة اثني عشر
عاما فقط . وهي المدة التي قضاها مع فيبسانيا ، التي
أنجبت له ابنا أسماه دروسوس ، على اسم أخيه الحبيب .

وفي سن الخامسة والعشرين حصل تيبيريوس على قيادته
الأولى . ولم تكن تلك القيادة عسكرية بقدر ما كانت
دبلوماسية . وكانت مهمته هي أن يستعيد الشعار الروماني
الذي كانت إحدى الكتائب قد فقدته في معركة مع الجيش
الفارسي .

وكان الجيش الفارسي قد فاجأ تلك الكتيبة بهجوم كاسح .

ولقد قتل كل رجال تلك الكتيبة • ولكن ذلك لم يكن هو أسوأ ما في الأمر • وإنما كانت الكارثة الكبرى هي فقد الشعار • وكانت شعارات الكتائب عبارة عن نسور برونزية مرفوعة على أعمدة • وكانت تقوم بنفس دور البيارق والأعلام في الحروب • وكان الدفاع عن النسر حتى آخر نفس هو الواجب المقدس الذي لا محيص عنه • وكان من المحتم أن يدافع عنه حامله حتى الموت ، فإذا سقط قتيلًا ، فإنه كان على أقرب جندي منه أن يتناول النسر ويرفعه ويدافع عنه بحياته ، وهكذا •

وكانت الكتيبة التي تخسر نسرًا تخسر شرفها العسكري وتعرض لأقسى العقوبات وقد كان بعض الضباط يستغلون مشاعر الولاء للنسر والقداء لمن أجله ، فيبادرون — إذا بدت بوادر الهزيمة بين رجالهم — بقذف النسر بين صفوف العدو ، فكان جنودهم يندفعون في استبسال جنوني ويشقون الصفوف نحوه وينتصرون على العدو •

وكانت مهمة تيبيريوس تستمد أهميتها من أن شعار النسر كان قد فقد من ثلاثين سنة • ولكن المهمة لم تكن صعبة • فقد كان هناك في روما ثائر فارسي كان قد قاد ثورة ضد ملك فارس ، وعندما فشلت الثورة لجأ إلى روما •

ولقد طلب الفارسيون رأس الثائر الهارب (تريداتس) في مقابل النسر • وأبرم تيبيريوس الصفقة معهم ، وحصل على شعار النسر وأرسل به إلى روما •

ثم راح يبحث عن مجد آخر • • مجد عسكري في هذه

المرّة • واتجه نحو البرابرة (١) على الحدود •

فالى الشمال من ايطاليا كانت توجد غابات الغال
الأوربية والغابات الجرمانية وغابات البانونيين • وكانت
كلها تحفل بقبائل ملتحية تقاتل للقتال فقط • وكان رجال
تلك القبائل يلتزمون بالزوجة الواحدة • ولم يكونوا
يقيمون فى مدن أو قرى • وانما كان كل منهم يقيم بأسرته
حيث يشاء • وكانوا يواجهون تكتيك الحرب النظامية
الرومانى بتكتيك حرب العصابات • فكانوا يظهرن فجأة
ويختفون فجأة وكانوا يهددون الجيوش الرومانية دائما •

وفى عام ١٢ ق م • طلب تيبيريوس لنفسه قيادة القوات
المقاتلة فى بانونيا وأجيب الى طلبه • وأصبح جنرالا •

وكانت بانونيا تقع على الشاطئ الشرقى من البحر
الادرياتيكي ، حيث توجد يوغسلافيا وبلغاريا الآن •

وكانت الحرب ضد البانونيين شبيهة بالحرب ضد الدخان •
فقد كانوا يختفون فى الغابات ، وفجأة كانت تنطلق سهامهم
فتجرح وتقتل بغير أن يستطيع أحد أن يحدد مصدرها أو يصل
الى رماتها •

وللتغلب على البانونيين كان على القائد أن يكون حذرا
وجريئا فى آن واحد وأن يكون مرنا وسريعا فى اصدار
قراراته • وكان تيبيريوس كذلك • فقد كان فى غاية الحذر
من الكمائن والفخاخ ، ولكنه كان سريعا ومبادرا فى مطاردة

(١) هذه الكلمة التى تستخدم فى العربية للتعبير عن الهجم والمتوحشين ، رومانية
الأصل والمعنى • وكان الرومان يطلقونها على الشعوب الهمجية ومعناها هو « الملتحين » ،

العدو الهارب • وكان يكبح جماح قواته حتى تحين اللحظة المناسبة فيضرب بقوة وعلى أوسع نطاق • وبذلك وطد مكانته كقائد عظيم • كما أنه استطاع - للمرة الوحيدة في حياته أن يكون محبوبا • فقد كان يعيش عيشة متواضعة بين جنوده ويشاركهم في متاعبهم ولا يميز نفسه عنهم بمظاهر الرفاهية التي كان يتمسك بها القواد الآخرون • وكان ضباطه يألفونه ويمازحونه • حتى لقد أطلق عليه بعض الضباط الصغار لقب بيبيريوس ومعناه «شارب النبيذ النقي - الغير ممزوج بماء - » • وكان تيبيريوس يتقبل مثل ذلك المزاح بروح مرحة • وكان أيضا من القادة القلائل الذين تنبهوا الى أهمية علاج الجنود من المرض أو الجراح ، فكان يصحب معه الاطباء والأدوية أينما ذهب وكان يأمر بحمل المصابين على المحفلات أو في العربات •

وكان تيبيريوس ينتقل على ظهور الخيل ويأبى أن يستخدم المحفة التي يحملها العبيد ، وكان يأكل كالجنود وهو جالس • بينما كان نبلاء الرومان يأكلون وهم مستلقون على بطونهم •

وعاد الى روما منتصرا ومكللا بالغار ومعه العديد من الأسرى والكثير من الغنائم • وفي روما استقبله الشعب بالهتاف وبالورود وبالاحتفالات والاستعراضات • وكانت تلك هي قمة ما حصل عليه من سعادة • لانه بدأ بعدها يفقد عناصر سعادته واحدا بعد الآخر •

فقد كان شقيقه دروسوس يقود جيشا في ألمانيا (وكان قد أنجب طفلين) ولكنه كان مبتدئا ، وكان لا يجيد فن القيادة • وكان كل مانجح فيه هو أن يجعل نهر الالب فاصلا بينه وبين

أعدائه • ثم وقع من فوق الحصان فأصيب بنزيف داخلي قضى عليه •

ولقد وصل النبأ الى تيبيريوس بسرعة أتاحت له أن يلحق به وهو فى الاحتضار (قطع فى الطريق اليه أربعمائة ميل فى أربعة أيام • وهى سرعة قياسية) وعاد تيبيريوس بجثة أخيه الى روما • وهكذا يكون قد فقد واحدا من اثنين لم يكن يحب غيرهما • • أخيه وزوجته • • ولم تتأخر الضربة الثانية عن الوقوع •

وكان تيبيريوس لم ينس بعد مرارة طلاق والدته القهرى وزواجها الاجبارى من أغسطس • وتشاء الأقدار أن تجرعه نفس الكأس •

فقد مات أجريبا وأصدر أغسطس أوامره بأن يطلق تيبيريوس فيبسانيا (وكانت حاملا) وأن يتزوج من جوليا بعد انتهاء سنة الحداد • ولم يكن أغسطس يعنى بذلك أن يرشح تيبيريوس للعرش ، فقد كان لا يحبه ، وانما كان قصده هو أن تنجب جوليا من تيبيريوس وريثا للعرش • وقد أنجبت فيبسانيا (بعد طلاقها) دروسوس ، وكان هو الابن الوحيد لتيبيريوس •

وكان لدى جوليا فى ذلك الوقت خمسة أطفال ، وكانوا كلهم من أجريبا - فعلا - • فقد كانت جوليا حريصة على ألا تحمل من أحد من عشاقها الكثيرين حتى لا ينكشف عبثها • ولذا فانها كانت على حد قولها «لا تسمح لأحد بركوب السفينة قبل أن يتم شحن عابرها» • وبالنسبة لعاطفة جوليا نحو تيبيريوس فانه كان من المعروف أنها كانت تحبه • وأكثر من ذلك أنه قيل أنه كان واحدا من عشاقها •

الفصل السادس

الهرب من جوليا

كانت جوليا فتاة مريحة ، وكان كل همها فى الحياة هو المتعة . ولكنها حاولت فى السنتين الأوليين من زواجها بتبيريوس أن تكون زوجة طيبة . صحيح أن تبيريوس كان بطبيعته الجادة لا يستطيع أن يحقق لها ماتصبو اليه من مرح ، ولكنه على أى حال كان شابا يتفجر بالحيوية ، وقادرا على اشباع حاجاتها . ولذا فانها لم تتردد فى مصاحبته الى دالماسيا - حيث كان يحارب القبائل - ولقد عاشت معه هناك فى الخيمة القرمزية التى كانت تخصص لزوجات القادة . كما أنها أنجبت له طفلا . ولكن الطفل مات .

وطبيعى أن المعيشة فى تلك الخيمة (مع ماكان يحيط بها من وسائل الخدمة والترفيه) لم تكن تشبه حياة روما الرغدة . فقد كانت جوليا تحب الضحك والحركة . وكانت فى أوج شبابها وحيويتها (فى السابعة والعشرين من عمرها) ، وكانت تحب الحرية . ومع أنها كانت قد ترملت مرتين

وكانت قد أنجبت خمسة أطفال ، فانها لم تكن مستعدة بعد للاستقرار .

وكانت جوليا مثقفة وجميلة . وفي روما ، كانت المرأة (فى مثل عراقة محتدها) تستطيع أن تحصل على الكثير من الحرية . ولذا فانها كانت ترتدى ثيابا حريرية شفافة ، تبدى معالم جسدها وتكشف عن مفاتنها ، وكانت تميل الى مصاحبة الشبان الأقوياء ، ولكن كان من بين أصدقائها بعض الكهول مثل الشاعر الداعر «أوفيد» ، وكانت تتناول الطعام مع الرجال . وتلك كانت فى روما فضيحة بالنسبة لامرأة فى مركزها ، لأن الولاثم الرومانية كانت تخصص للرجال فقط ، وكانت النساء اللائى يظهرن فى تلك الحفلات هن الخادومات والراقصات وجوارى المتعة وما أشبه . ولكن جوليا لم تكن تبالى بالفضيحة .

ولعل مارسيلس كان قادرا على السيطرة على جوليا . ولكنه مات . أما أجريبا فانه كان يؤثر أن يتجنب مواجهة المتاعب ، فكان يغمض عينيه عن آفاعيل جوليا . وفى مقابل ذلك فانها كانت تتجنب أن تحمل من غيره وكان أطفالها الخمسة شبيهين بأجريبا فعلا . ولقد اكتفى أجريبا بذلك ولم يفكر فى تطليقها .

وكانت جوليا تأمل أن يحقق لها تيبيريوس ماتصبو اليه من متعة وانطلاق ولكنه كان ينظر بعين السخط الى تحررها وعبثها . كما أنها تعرضت لسخط حماتها (ليفيا) أيضا ، بعد أن عادت مع تيبيريوس من الدالاسيا .

وكانت ليفيا هى أقوى امرأة فى روما . وعندما تبينت

خianat جوليا لابنها فانها لم تتردد فى الوقوف منها موقف
العداء .

وعندما تتعارك النساء فان الامبراطوريات تضطرب .
فقد كانت جوليا تستطيع أن تختلف مع مارسيلس أو أجريبا
بغير مخاطر تذكر . لأن كلا من طرفى الخلاف كان موضع حب
الامبراطور . أما مع ليفيا فان الأمر كان مختلفا لأنها كانت
حبيبة الامبراطور المفضلة وزوجته ، وأهم من ذلك أنها كانت
شريكتة فى الحكم ، حتى لقد اعترف بها السناتو ومنحها لقب
أوغسطا . وكان أغسطس يعتمد عليها تماما فى ادارة شئون
الحكم ، ويطلب مشورتها فى كل مشاكلة . وكانت ليفيا
جديرة بكل تلك الثقة ، لأنها كانت عاقلة وحكيمة سواء فى
ادارة شئون الحكم أو ادارة بيتها .

ولقد أوضحت ليفيا لاحدى صديقاتها كيف استطاعت
أن تحتفظ بحب زوجها لها فقالت «اننى أحافظ على سمعتى
وعلى طهارتى ، وأفعل كل ما يطلبه زوجى وأنا مبتسمة ،
ولا أتدخل فى شئونه ، ولا أتطفل عليه ، وأخيرا فاننى
أتظاهر دائما بأنى لا أعرف شيئا عن مفاخراته العاطفية
والجنسية» . وكانت جوليا من الجانب الآخر هى معبودة
الجماهير فى روما ، بحكم مرحها وجمالها .

ومن حول كل من المرأتين تكون حزب قوى . فكان حزب
ليفيا وتيبيريوس مكونا من العائلات العريقة التى تتمسك
بالشرف والتقاليد . أما حزب جوليا فانه كان مكونا من
الشباب المتحرر .

وكان الامبراطور يعيش حائرا بين المرأتين . فعندما

ليفيا تكون معه فانه كان يستطيع أن يتفجر غضبا للفضيلة ، وأن يصدر الأوامر والقوانين ضد الفجور والزنا وأن يمنع انفاق الأموال على الملاهي . أما عندما تكون جوليا معه فانه كان لا يرى أحدا سواها .

وفي روما انطلقت جوليا في عبثها بغير حدود أو قيود ، بينما كان تيبيريوس يحترق غضبا . ولكنه كان غير مستقر في روما بسبب المعارك المتابعة التي كان عليه أن يقودها . ولذا فانه كان دائم السفر من روما واليها .

وذات يوم التقى بزوجته السابقة فيبسانا في منزل أحد أصدقائه . ولم يستطع يومها أن يتمالك أعصابه فظل ينظر اليها باهتا . ومع أن أغسطس كان قد بادر بتزويجها من سناتور ثرى (اسينيوس جالوس) فور طلاقها من تيبيريوس ، فان تيبيريوس لم يبال بحقيقة كونها زوجة لغيره ، وراح يتابعها بعينيه وبوجدانه حتى آثار انتباه ولغط الحاضرين . وعندما خرجت فيبسانيا خرج وراءها وظل يتابعها حتى دخلت بيتها . وعلم أغسطس بتلك الفضيحة فكان سخطه عظيما . ولذا فانه استدعى تيبيريوس وصب عليه جام غضبه ثم أصدر اليه أمرا قاطعا ألا يرى فيبسانيا بعد ذلك .

أما عن جوليا فان أحدا لم يجرؤ على ابلاغ الامبراطور بفضائحها وبأنها طالما شوهدت وهي تترنح من السكر في شوارع روما .

وكان باستطاعة تيبيريوس أن يتخلص من جوليا ومتاعبها بسهولة لو أنه استخدم حقه القانوني . فقد كان أغسطس - بنصيحة من ليفيا - قد أصدر قانونا هو «القانون اليولياني

ضد الزنا» وكان القانون يقضى بمعاقبة الزوجة الزانية بعقوبات شديدة ومعاقبة عشيقها أيضا . وكان القانون ينص على أن يقوم الزوج بتوجيه الاتهام ، فإذا لم يفعل ذلك فى خلال ستين يوما من وقوع الجريمة فإن واجب الاتهام كان ينتقل الى والد الزوجة . فإذا لم يقم والد الزوجة بذلك فإنه كان من حق أى رومانى أن يقدم القضية الى العدالة .

ولكن تيبيريوس لم يفكر فى الافادة من ذلك القانون لنفس السبب الذى حال بين الآخرين وبين التصدى لجوليا بالاتهام - فقد كانت ابنة الامبراطور ، وكان آبنائها (من أجريبا) هم المرشحون الطبيعىون لوراثة العرش . ولم يجد تيبيريوس أمامه من مهرب سوى الحروب . وفى ألمانيا استطاع أن يتم ماكان قد بدأه شقيقه دروسوس وأن يخضع القبائل ويهزمها الواحدة بعد الأخرى . ولقد حصل تيبيريوس بذلك على كل ماكان يصبوا اليه من مجد . أما السعادة فإنها كانت قد ضاعت منه الى الأبد .

وإذا كانت الحرب قد أعطت لتيبيريوس الفرصة للبعد عن جوليا وفضائعها ، فإنها قد أعطت جوليا فرصة أكبر للعبث ولاثارة المزيد من الفضائح . ولم تكن مثل هذه الفضائح لتخفى عن أعين الناس . لأنه كان لا يوجد مكان فى روما يخلو من الناس ، ولا كان يوجد قصر يخلو من العبيد والجوارى . وكان ذلك المناخ من أخصب ما يكون لمروجى الفضائح ومطلقى الاشاعات .

ويوما بعد يوم راحت أعصاب تيبيريوس تنهار . فلم يكف جوليا ماكانت تلوث به سمعته وشرفه من فضائح ،

وانما راحت تستغل حب أبيها لها وتعمل على تخريب عواطفه نحو تيبيريوس ، الذى كان قد أعلن لها غير مرة سخطه واستنكاره لسلوكها المشين . ولم يكن التأثير فى عواطف أغسطس صعبا من هذه الناحية . فانه لم يحب تيبيريوس قط ، وان كان قد قدر مواهبه كرجل سياسة ورجل حرب . ومع أنه لم يحرمه مما يستحقه من التكريم لانتصاراته والتقدير لمواهبه ، كما أنه زوجه بابنته وأخيرا منحه رتبة التربيون (وهى رتبة تعطى صاحبها امتيازات جمة وحصانة من القانون لمدة سنة ، أما بالنسبة لتيبيريوس فقد زادت تلك المدة الى ٥ سنوات) ، مع كل ذلك فان أغسطس كان مستعدا للتأثر بما راحت جوليا تصبه فى أذنه من سموم ضد تيبيريوس .

ولم يستطع تيبيريوس أن يتحمل أكثر من ذلك ورأى أنه لو ترك روما والحرب وذهب الى مكان هادئ بعيد فقد يريحه ذلك من متاعبه . وفى نفس الوقت فان جوليا سوف تنطلق فى عبثها الى مدى لايمكن أن يخفى على أغسطس وبذلك يقع أغسطس نفسه تحت طائلة القانون اليونانى للزنا فيضطر للتصرف ضد ابنته . وأقلع تيبيريوس الى جزيرة رودس .

وثار أغسطس غضبا لأن تيبيريوس ترك مناصبه وغادر روما بغير أذنه ، وأصدر أمرا قاطعا «حسننا فليذهب حيث يشاء ، ولكن يمنع من العودة الى روما» .

فى المنفى

وفى السادسة والثلاثين من عمره ، كان تيبيريوس قد بدأ اقامته فى رودس . وكان رجلا قد سيطرت عليه المرارة والغضب كما أنه كان رجلا قوى الارادة ، مكتمل الحيوية ، وكان على تمام الصلاحية لحكم امبراطورية ، أو ادارة ولاية أو قيادة جيش ، ولكن كل تلك القدرات صارت الآن حبيسة فى صدره وصارت منفية فى رودس .

وكانت الجزيرة اغريقية فى كل شىء . . فى شعبها وفى أزيائها وفى لغتها ، كما أنها كانت جزءا من الامبراطورية الرومانية . ولقد راقت الجزيرة لتيبيريوس ووجد فيها ماكان ينشده من هدوء ومن فنون . وبامتيازات التريبيون عاش تيبيريوس فى الجزيرة منعما مكرما . ومع أنه كان من حقه أن يكون له حرسه الخاص وأن يعامل كأكبر رأس فى الجزيرة ، فانه لم يأبه بتلك المظاهر وراح يعيش فى يسر وتواضع مع أهل الجزيرة وعلمائها وفنانيها ، وكان يخاطب العامة كأنه واحد منهم وكان يتقبل مفاكهاتهم ويبادلهم أمثالها . وكان

هناك أستاذ فى الأدب الاغريقى اسمه ديوجين (وهو غير ديوجين الفيلسوف المشهور الذى كان يبحث دائما عن الرجل الفاضل) ، وذات يوم ذهب تيبيريوس الى منزل ديوجين لكى يتسامر معه . وبكل بساطة أرسل ديوجين اليه خادمه ليقول «عد بعد سبعة أيام» . وبغير ضغينة مضى تيبيريوس عائدا . وبعد سبعة أيام عاد واستقبله ديوجين . على أن تيبيريوس لم يكن يقبل مثل هذه المعاملة من غير أهل العلم والأدب . فقد تجرأ أحد الأغنياء على رفض مقابلته فما كان منه الا أن عاد الى قصره وارتنى زى التريبيون ثم عاد الى الرجل وقبض عليه وأودعه السجن .

وذات يوم ذهب لزيارة المرضى فى المستشفى . ولكى يرضيه القائمون على الادارة فانهم أجبروا المرضى على تنظيف المستشفى ثم أوقفهم فى صف واحد لاستقباله . فما كان منه الا أن أوسع الموظفين لوما وتأنيا ثم راح يعتذر للمرضى واحدا بعد الآخر . وبذلك كسب قلوب شعب الجزيرة .

وفى قصره كان يجتمع أهل الأدب والفن والفلسفة ويتناقشون ويعرضون أفكارهم وانتاجهم . وكان تيبيريوس يشترك معهم ويرحب بهم ويستضيفهم . وكانت لديه فى القصر مكتبة حافلة بمجلدات العلم والأدب ، كما أنها كانت تشتمل على عدد ضخم من كتب الجنس والأدب المكشوف التى كان يستوردها من جميع أنحاء الامبراطورية . على أن جزءا كبيرا من اهتمامه كان موجه الى علم التنجيم ، فكان يدرس الفلك بغرض التعرف على ماهو مخبوء له فى علم الغيب .

وبالاضافة الى هؤلاء كان حاملو الهدايا وطلاب
الاحسان يأتون للقصر من كل مكان فى الجزيرة . وكذلك
كان صيادو الشهرة . وكذلك كان المنحرفون . وكان أهل
هذه الفئة الأخيرة مصدر ضيق لأغسطس فى روما ، لأنهم
كانوا - بما يوفرونه من متع - يفتنون الاثرياء عن الزواج،
ولذا فان قوانينا صدرت فى روما لتحريم العزوبية .

وعن تيبيريوس نفسه فانه راح يستمتع فى رودس بكل
ألوان الجنس . وكان يبدأ يومه بقضاء وقت فى المكتبة ثم
يتجول فى المدينة ثم يتناول غذاء خفيفا ، ثم يمضى وقتا فى
الحمام . وحتى فى الحمام فانه كثيرا ماكان يستطيب الحوار
مع منجم أو فيلسوف . ومن بعد ذلك فانه كان يتناول عشاء
حافلا مع ضيوفه المختارين . وقد يختار أن يحاورهم فى
الفلسفة وعلم النجوم أو يستمتع بالراقصات والموسيقى .
ومن بعدها كان يتجه الى فراشه ومعه الرفيقة - أو الرفيق-
المختار ، أو مع عدد منهم سويا .

وقد يظن الكثيرون أن تلك الحياة كانت حياة سعيدة .
والواقع هو أن تيبيريوس كان تعيسا لأنه كان يعيش بلا عمل
وبلا هدف . وفى ذلك الوقت كان أغسطس قد بدأ يدخل
فى الشيخوخة ، وكانت أسنانه قد راحت تتآكل ، وانتابه
بعض العرج ، كما أنه كان يعانى من مرض الحصوة . وفى
مثل هذه السن فان المرء ينتابه الشعور بأن عليه أن يبادر
بإنجاز رسالته وتحقيق أهدافه . ولذا فانه بدأ يفكر فى
وراثة العرش .

ولكن الحرب بين الفريقين النسائيين (ليفيا وأنتونيا
- أرملة دروسوس - من ناحية ، وجوليا وعصبتها وأبنائها

من ناحية أخرى) كانت تقض مضجعه . فقد كان هناك
لوشوش وجايوس (ابنى جوليا) وكاناهما المرشحين الطبيعيين
لوراثة العرش وكان كلاهما يبغض تيبيريوس كزوجة أمه من
ناحية وكمناقض خطير على العرش . ولقد بدأت عصبة
جوليا — بالاضافة الى جهودها الدائبة التحطيم سمعة تيبيريوس
تفكر فى التخلص من تيبيريوس بالقتل . ولكن أغسطس لم
يكن ليرضى عن ذلك ، وكان قد منح تيبيريوس حق الإقامة فى
رودس ، ولذا فان المتآمرون تراجعوا عن خطتهم .

وانهمك أغسطس فى ادارة شئون الامبراطورية من
تعيين وعزل (وعقاب) للحكام والموظفين ومن شن الحروب
وعقد الصلح والمحالفات ومن سن القوانين ومن ادارة شئون
القضاء والأمن والمرافق . وحتى الديانة الاولمبية كان هو
كاهنها الأكبر (بعد وفاة ليبيدوس الذى كان قد اكتفى بذلك
المنصب بعد انتصار أكتيوم) .

وعلى سبيل المثال فقد تصدى أغسطس لعلاج مشكلة
كانت تؤرق الحكومة ، وكانت هى مشكلة تزايد عدد العبيد
المحررين . فقد كان السادة يتخلصون من عبء اطعام وايواء
الكهول والضعفاء منهم بتحريرهم . وتكون النتيجة هى أنهم
كانوا ينشئون لأنفسهم بيوتا وأسرار حرة وبذلك صار الدم
الرومانى مهددا بيوم تكون فيه الأغلبية للدم المختلط . وفى
عهد أغسطس كان هناك مواطنون من نسل العبيد وكانت لهم
كل حقوق وجنسية الرومانيين ، وكان منهم فارسيون وغاليون
وألمان واغريق ومصريون وعرب وزنوج . ولمقاومة ذلك
أصدر أغسطس قانونا يحرم على السادة أن يحرروا — مهما
كان عدد من يملكون من العبيد — أكثر من مائة عبد ، أما من

كانوا يمتلكون أقل من مائة فكان العدد الذى يمكنهم تحريره هو ٢٥ فقط .

وماكاد ينتهى من علاج تلك المشكلة حتى وجد نفسه فى مشكلة تخصه شخصيا كما تخص أيضا الأخلاق العامة . فقد كانت عصابة جوليا قد مضت فى غيها بعيدا . ونشر شاعرهما الداعر «أوفيد» ديوانه «فنون الحب» وهو ديوان يحفل بالأدب المكشوف ويدعو علنا الى الفسق والفجور ، وقد أثار هذا الديوان ثائرة أنصار الفضيلة . . ليس لأن روما كانت مدينة الفضائل ، فقد كان من حق الرجل الرومانى (زوجا كان أم أعزبا) أن يمارس كل ما يشتهي من فنون الجنس مع أى امرأة . ولكن العكس كان صحيحا - فى نظر القانون عموما، وفى نظر القانون اليولياني على الأخص - بالنسبة للمرأة الرومانية . وكان مفروضا عليها أن تحافظ على طهارتها وعفافها والا تعرضت لأشد العقوبات . وكانت جوليا قد انطلقت مع شهواتها الى الحد الذى لم تعد معه تفكر فى التستر . اذ كانت تجوب شوارع روما مع صديقاتها وكن يعرضن أنفسهن على عابرى السبيل كالبنايا ، وكن يمارسن مع عابرى السبيل أخط أنواع العلاقات الجنسية فى ركن من شارع أو تحت ظلال البواكى . وأخيرا فانهن كن يذهبن الى حى البنايا ويزاحمن البنايا فى عملهن .

وبديهى أن أغسطس قد علم ببعض ذلك ان لم يكن كله، ولكنه تظاهر بأنه يجهل تلك المخازى .

ولكن ليفيا تمكنت أخيرا من ايقاظه من غفوته . فقد جمعت كل الأدلة اللازمة ثم وضعتها تحت نظره مباشرة .

وكانت الأدلة من القوة والوضوح بحيث جعلته يفيق من غفوته ويشتعل بالغضب من أجل اسمه وكرامته اللذين مرغتهما جوليا في الأحوال . وكان عليه فوق ذلك أن يطيع القانون الذي كان هو الذي شرعه وأصدره ضد الزنا . وطبقا لذلك القانون فإنه كان ملزما بتوجيه الاتهام الى جوليا ، لأن زوجها - تيبيريوس - كان غائبا في رودس . ثم أن ليفيا نبهته بلباقة الى أنه لو تهرب من القيام بهذا الواجب فإن هناك من سيتصدى للقيام به - طبقا للقانون - .

واستدعى أغسطس جوليا ووجه اليها الاتهام بين سيل من الشتائم وصب عليها جام غضبه ، ثم آدانها ، ثم أصدر الحكم عليها . ومع أن القانون كان ينص على اعدام الزوجة الخائنة فإن قلب أغسطس لم يطاوعه على اعدام جوليا ، ولذا فإنه حكم عليها بالنفى في جزيرة جرداء نائية هي جزيرة باندا تاريا .

وكانت فرحة تيبيريوس بهذا النبأ طاغية . ولكن تلك الفرحة لم تكن تامة لأن أغسطس ظل مصرا على عدم الاذن له بالعودة الى روما . وأدهى من ذلك أن عددا من الأنبياء السيئة جاء يترى . فقد كانت تماثيل تيبيريوس (التي أقيمت تكريما لانتصاراته العسكرية) تتعرض للعدوان والتحطيم والتلطix بالأقذار ، على أيدي أنصار جوليا . ولعل أبناء جوليا الثلاثة كانوا من وراء تلك الاعتداءات . وكان أحدهم «يوستموس» قد تعرض لغضب أغسطس فنفاه بدوره . أما شقيقاه (لوشيوخس وجايوس) فقد كانا في قمة السطوة ، لأن أغسطس كان قد بلغ الشيخوخة والضعف حدا جعلهما يترقبان أن يعتلى أحدهما العرش قريبا . وفي حالة

وفاة أغسطس واعتلاء أحد الشقيقتين العرش فان مصير
تيبير يوس المحتوم كان هو الاعدام .

وفى ظل ذلك التهديد الرهيب عاش تيبيريوس فى رودس
وقد ازداد هما وانطوى على نفسه أكثر وأكثر . ولم يكن له
هم وقتئذ الا استشارة النجوم . وقد كان الرومان يؤمنون
بأن النجوم تعبر عن المستقبل وعن المجهول . ولعل ذلك
يرجع الى أنهم لم يكونوا يؤمنون حقا بالآلهة الاولمبية (التي
ورثوها عن الاغريق) .

ولم يكن القدماء بالجهل العلمى الذى يتصوره الكثيرون
منا . فقد كانوا قو توصلوا الى الكثير من الحقائق والقوانين
العلمية . ومنها على سبيل المثال كروية الأرض وقانون
الجاذبية . فقد قال سترابو «ان الأرض ليست منبسطة ، وانما
هى محدبة وسطحها كسطح الكرة . كما أن كل الأجسام من
فوقها ترتبط بمركزها» . وفى هذه العبارة نجد ما قاله
جاليليو ونيوتن معا .

وكان أغسطس نفسه من أشد المؤمنين بعلوم التنبؤ
بالغيب . فقد كان يؤمن بأن هطول مطر خفيف عند بدء أى
رحلة يمثل فألاً حسناً . وكان يتوقع المشاكل والمتاعب ان
هو أخطأ قلبس فردة الحذاء اليمنى فى المقدم اليسرى أو
العكس ، وكان يردد دائماً أن حلماً معيناً قد أنقذ حياته .
فقد حلم ذات ليلة (فى خلال معركة فيليبى) بأن خيمته مهددة
بالوقوع فى يد العدو ، فاستيقظ من نومه وغادرها على
الفور . وبعد قليل وقعت الخيمة فى يد العدو فعلاً .

أما بالنسبة لتيبير يوس فكانت النجوم هى ملاذه الأول

والأحلام هي الملاذ الثانى والعلامات هي الملاذ الثالث • وكان
تيبيريوس يذكر أن واحدا من أجداده «كلوديوس العادل» كان
يقود معركة بحرية حين أنبأه رجاله بأن الكتاكيت المقدسة
ترفض أن تتناول طعامها (وتلك كانت علامة سيئة) فما كان
منه إلا أن قال «ان كانت ترفض الأكل فلتشرب من البحر»
ثم ألقى بالكتاكيت فى البحر • • وخسر كلوديوس المعركة
وخسر معها أسطوله بأكمله •

وقد راح تيبيريوس يستعين بالمنجمين ويطلب منهم أن
ينبئوه بمصيره • وكان سبيله الى التحقق من كفاءة المنجم هو
أن يصحبه فى رحلة الى شاطئ البحر • ومن فوق صخرة
عالية كان يختبر علم المنجم بأسئلة فنية — فقد كان هو نفسه
متضلعا فى علم النجوم — فاذا جاءت اجابات المنجم على مرامه
فانه كان يعود به ويكرمه ويجعله من حاشيته ، أما اذا حدث
العكس فانه كان يشير الى عبد (كان يصحبه كحارس) اشارة
خفية فيدفع بالمنجم من فوق الصخرة فيهوى من حلق ويتحطم
على صخور الشاطئ •

وذات ليلة صحب تيبيريوس منجما يدعى ثرائيليس الى
الصخرة وطلب منه أن يستنبىء النجوم عن الأخبار • وكان
ثرائيليس من الذكاء بحيث أنه تظاهر بالرعب الشديد وراح
يصيح بأن النجوم تنبئه بأن حياته هو تتعرض لخطر شديد
فى تلك اللحظة • وضحك تيبيريوس وأشار للعبد بالابتعاد

ثم طلب من ثراثيليس أن يسأل النجوم عن المزيد من الأخبار :
وسواء أكان ثراثيليس على علم أكد بما قاله أو أنها كانت
رمية موفقة فانه قال لتيبيريوس «ياللحظ السعيد ان هناك
سفينة قادمة ومعها أخبار طيبة جدا لك» .

وللتو ظهرت السفينة فى الأفق ودخلت الميناء ومعها
الرسالة التى كان تيبيريوس يتلهف عليها . وكانت أمرا من
أغسطس بعودة تيبيريوس الى روما .

الفصل الثامن

تيبيريوس •• وليا للعهد

وفى روما ، شعر تيبيريوس بأنه عاد للحياة من جديد •
فقد كان قريبا من قمة السلطة ، وكانت عدوته جوليا تعيش
فى منفاها البعيد • ومع أن الامبراطور كان قد استقبله
بتجهم فان ذلك لم يؤثر فى موقعه ولا فى امتيازاته •

وكان تيبيريوس قد عاد الى روما فى السنة الثانية
الميلادية • وفى نفس السنة وصلت أنباء خطيرة من مارسيليا،
التي كان لوشيوس (ابن جوليا ، وأحد المرشحين للعرش) قد
ذهب اليها فى مهمة رسمية • وكان أول تلك الأنباء هو أن
لوشيوس مريض ، ثم جاء نبأ ثان بأن مرضه خطير ، ثم نبأ
ثالث بوفاته • وبذلك يكون القدر قد خطا بتيبيريوس خطوة
للأمام نحو العرش • ومع أن الاشاعات قد اتهمت تيبيريوس
بتسميم لوشيوس الا أنه لم يبال بها • أما الامبراطور فقد
خفف من تجهمه نحوه لأن المتاعب كانت قد بدأت تظهر فى
بعض الولايات وكان الامبراطور يحتاج الى قائد كفء •

وقد بدأ الامبراطور بارسال الابن الباقي لجوليا

(جايوس) لقمع فتنة فى منطقة ليشيا ، وذلك على أمل أن يتدرب جايوس على الحرب وتكتمل صلاحيته لمنصب الامبراطور . ومع أن تلك الفتنة كانت ضئيلة وكانت الحرب التى قادها جايوس يومها حربا صغيرة فانه ليست هناك حرب يمكن أن تعد حربا صغيرة بالنسبة للرجل الذى يموت فيها . وقد مات جايوس فى تلك الحرب .

واستسلم أغسطس للقدر . فقد قامر لكى يولى لوشيوس أو جايوس العهد ولكن القدر ذهب بحياتيهما ولم يعد أمام أغسطس من خيار . . فليكن تيبيريوس اذن هو ولى العهد ، مادامت الآلهة قد أصرت على ذلك . وفتح العالم ذراعيه لتيبيريوس ، وأعطاه أغسطس جيوشا ضخمة ومهام عديدة . وكان أولها هو انجاز أهداف الحملة التى مات فيها شقيقه دروسوس فى ألمانيا . ونجح تيبيريوس فى اخضاع الالمان . ومن هناك ذهب الى بانونيا ثم الى دالماشيا وقضى على المتاعب فيها . وعادت شوارع روما تضج من جديد بالهتاف للقائد المنتصر تيبيريوس . وعادت تماثيله الى قواعدها وراح المثالون ينحتون له تماثيل جديدة .

ومع كل ذلك فان طبيعته الانطوائية لم تتغير ، وظل يعيش ويتحدث بنفس ذلك البطء الذى كان يثقل على الناس . وكان تعليق أغسطس على ذلك هو «يالروما المسكينة التى سوف يحكمها هذا الانسان الكئيب» .

وفى عام ٤ بعد الميلاد تبنى أغسطس تيبيريوس رسميا . وبذلك أصبح هو ولى العهد الشرعى .

وكانت روما تعج نى ذلك الوقت بالأقاويل عن فضائح

جديدة لأسرة الامبراطور • ولم تكن جوليا الجميلة العابثة
هى مدار الأقاويل فى هذه المرة • فقد كانت المسكينة تعيش
فى منفاها وهى محرومة تماما من الرجال ومن النبيذ معا ،
وكانت محرومة حتى من الطعام الجيد • فتلک كانت هى
العقوبة التى أصر أغسطس على تنفيذها عليها فى المنفى •

وكانت صاحبة الفضائح الجديدة هى جوليا الصغيرة • •
حفيدة الامبراطور وابنة جوايا المنفية • وكانت الصغيرة
صورة طبق الأصل من أمها فى كل شىء •

وراحت جوليا الصغيرة تمارس كل ماكانت تمارسه أمها
من عبث ، بل وأكثر منه • وكانت العصبية التى تصاحبها هى
نفس عصبية أمها • وكانت من بينها الشاعر أوفيد صاحب
ديوان «فنون الحب» • واذا كان أوفيد قد كتب تلك الفنون
على الورق فان جوليا الصغيرة كانت هى صاحبة القدح
المعلى فى تطبيقها على نفسها • فقد قال أوفيد «اشرب كأس
اللذة حتى آخر قطرة» • ولم تكن تلك الحكمة الداعرة
بالشئ الغريب على مجتمع الرجال • ولكن أوفيد أصاب روما
بصدمة عنيفة حين وجه نفس النصيحة وأعطى نفس الحق
للنساء • والى بنات روما وجه أوفيد نصيحة أدهى وأضل
«لاتبخل بشئ من مفاتنك على عشاقك ، ولاتأسى اذا خانوك •
فما الذى تخسرينه • ان مفاتنك سوف تبقى على حالها حتى
لو استمتع بها ألف ألف رجل» •

وفى هذه المرة لم يتردد الامبراطور فى صب جام غضبه
على جوليا الصغيرة وعصبتها - خصوصا بعد أن أطلعه
تبييريوس على فضائحها بكل تفاصيلها - وقضى أغسطس على

جوليا الصغيرة بالنفى - ومع أنها كانت حاملا ، وكانت تعرف من هو والد جنينها ، ومع أن هذا الشاب أعلن اعترافه بأبوة الجنين وأعلن استعدادة للزواج بها ، فان أغسطس رفض قبول ذلك ، وأمر بنفيه هو الآخر . وعندما ولدت جوليا انتزع الحراس منها الوليد - بأمر أغسطس - ثم ألقوا به فى العراء حتى مات .

والى المنفى ذهب أيضا أوفيد . ولم يكن ديوانه هو سبب نفيه . لأنه كان قد نشر ذلك الديوان منذ عشر سنوات . وانما كانت التهمة هى أنه خالف القانون اليولياني سواء بارتكابه الزنا مع جوليا أو بعدم التبليغ عن عبثها مع الآخرين . وأخيرا فان أغسطس كان قد ضاق ذرعا بكل مايمت الى الفجور بسبب . وكان منفى أوفيد هو مدينة تومى التى تقع على مصب الدانوب (على البحر الاسود) . وهناك عاش أوفيد وهو محروم من نبيذ روما المعتق ومن ملاحيتها وملاذها . ومن هناك راحت ترى استرحاماته وتوسلاته الى الامبراطور بأن يعفو عنه . ومع أن تلك المدينة كانت غنية بمناظرها الطبيعية ، وكان أجريبا نفسه قد أعجب بها وقضى فيها ستة أشهر ، فان أوفيد كان يعيش وهو مدعور من غارات القبائل ، كما أنه كان يفتقد أيضا مغاني روما ، وكان لايجد فى تلك المدينة من يفهم أشعاره أو يعجب بها . ولقد درس أوفيد لغة القوم وكتب بعض أشعاره بها وحصل على بعض الاعجاب والتقدير . ولكن ذلك لم يعوضه فى شئ عن روما . ولقد ظل يتابع كتابة رسائل التوسل والاسترحام حتى مات فى منفاه .

وكان أغسطس قد أصبح - فى السبعين من عمره - كهلا

محطما بعد أن فقد شبابه وصحته وفقد أحفاده كلهم ،
سواء بالموت أو النفى . وكان حين يتحدث عن ابنته وحفيده
جوليا وحفيده بوستيموس يشير اليهم بقوله «قروحي الثلاثة
إلـبـاقـية» .

(ولكن متاعبه لم تكن قد انتهت . فقد اشتعلت ألمانيا
بالثورات من جديد . وفي هذه المرة بعث بقائد يدعى
فاروس وزوده بثلاث من أقوى كتائبه (١٨٠٠٠ رجل) .
واستطاع قائد ألماني يدعى هيرمان (أرمينيوس) أن يضل
فاروس وأن يحيط بجيشه في غابة توتبورج (١) وأن يقضى
على الجيش بأكمله بحيث لم يفلت أحد منه من الموت . ولقد
قتل معظم الجنود في المعركة ، أما الباقون منهم فانهم ماتوا
بعد عذاب رهيب في احتفالات النصر . وكان فاروس من
العقل بحيث أنه انتحر . فقد كان الانتحار أرخص بكثير مما
كان يعده له أرمينيوس من فنون العذاب . كما أن أغسطس
كان بدوره سوف يدينه مثل ذلك لو أنه جرؤ على العودة
إليه .

وأصاب النكبة أغسطس بما يشبه الجنون فراح يدور
في القصر وهو يصيح «فاروس . . فاروس . . أعد إلى
كتائبى» . وقيل أيضا انه كان يضرب رأسه في الحيط من
فرط الفجعة . وكانت خسارة الكتائب الثلاث خسارة كبيرة
فعلا لأن كل ماكانت تملكه روما من كتائب الليجيون كان هو
٢٨ كتيبة . وكان الدفاع عن الحدود في ألمانيا بكتائب أخرى
يعنى اضعاف بعض الحدود الأخرى . كما أن انتصار
أرمينيوس كان جديرا بتشجيع المستعمرات وقبائل الحدود

على الثورة • وكان من أسوأ مظاهر النكبة أيضا ، فقد
الكتائب الثلاث لشعارات النسر الرومانى ، وتلك كانت
فضيحة ومهانة للامبراطورية •

ولجأ أغسطس الى القائد الكفاء لضرب الألمان واعادة
الأمن والتوازن الى الامبراطورية • • الى تيبيريوس • وتصدى
تيبيريوس للمهمة بكفاءته الموهوبة فوجد كتائب جديدة ودربها
ثم قادها فى حملة ضارية ، واستطاع أن يعاقب القبائل
الألمانية أشد عقاب • ولقد اعترف أغسطس بأنه لولا
تيبيريوس لما أمكن انقاذ الامبراطورية وقتها •

وباطمئنان أغسطس الى سلامة الامبراطورية والى كفاءة
امبراطور المستقبل لم يبق لديه سوى عمل واحد ، كان عليه
أن ينجزه قبل أن يموت ، وكان ذلك العمل هو تسجيل
أعماله •

واستدعى أغسطس أحد عبيده الكتبة ، وراح يملئ عليه
مذكراته وأعماله الكبرى • وبعد أن تم التسجيل راح سائر
الكتبة ينقلون منه نسخا عديدة • وأرسلت النسخ الى سائر
أنحاء الامبراطورية حيث جرى نقشها على المعابد وعلى
الأعمدة الرومانية • ولم تبق من تلك النسخ سوى نسختان،
واحدة باللاتينية وأخرى بالاغريقية •

وفى تلك المذكرات قال أغسطس «فى التاسعة عشر من
عمرى أنشأت جيشا من مالى الخاص • وبهذا الجيش أنقذت
الناس من الظلمة والطغاة • ولقد بعثت الى المنفى بالذين
قتلوا والدى (كان يعنى والده بالتبنى يوليوس قيصر) •
ولقد أسرت ستمائة سفينة حربية كبرى ، وعددا لا يحصى من

السفن الصغيرة • ولقد انتصرت بنفسى على أعدائى مرتين
(كان يعنى معركتى فيليبى واكتيوم) ولقد تبرعت لخزانة
الدولة بـ ١٥٠٠٠٠٠ ر. ١٥٠٠ ر. سيسترس من مالى الخاص • وبنيت
دار السناتو ، وبنيت بجوارها معبدا للآلهة ميزفا ، وأضفت
الكثير من المباني الى ملعب ماكسيموس ومعابد جوبيتر
وكويرينوس وجونو • وبنيت معابدا لمجمع الآلهة وللأم
القوية • ولقد أقيمت ثلاث حفلات ضخمة للمصارعات باسمى
 وخمس حفلات بأسماء أبنائى وأبناء اخوتى ، وفى كل حفلة
تصارع ١٠٠٠٠ رجل حتى الموت • وأقيمت استعراضين
للألعاب القوى باسمى واستعراضا ثالثا باسم حفيدى • كما
أقيمت عروضاً لصيد الوحوش فى الملاعب ستا وعشرين مرة ،
وفى كل مرة كان يتم صيد وقتل ٣٥٠٠ وحش • كما أقيمت
معركة بحرية فى نهر التيبر ، حيث تقاتل أسطولان ، بلغ
عدد سفنهما ٣٠ سفينة ، وعدد مقاتليها ٣٠٠٠ • ولقد
ظهرت البحار من القراصنة • وضاعفت موارد الامبراطورية •
وأضفت مصر الى أملاكها • واستعدت الكثير من شعارات
النسر الرومانى التى كان غيى من القادة قد فقدوها • ولقد
كرمنى السناتو بلقب أغسطس وكانت أعمدة معابدى يكللها
الغار (١) • ولقد تم تسجيل هذه المذكرات (٢) وعمرى
٧٧ سنة» •

(١) اسم الغار باللاتينية (والاغريقية) هو « لوريل » ومنه اشتق اسم شهادة
اتمام الدراسة الثانوية (بكالوريا) ومعناها هو « باقة الغار » •
(٢) النسخة الوحيدة التى بقيت من هذه المذكرات وجدت مقوشة على حجر بمدينة
انقرة • وقد حرص أغسطس على ألا يشير الى كليوباترا فى هذه المذكرات ، وانما اكتفى
بالقول بأنه ضم مصر الى الامبراطورية • ويرجع ذلك الى رعيته فى اسدال الستار على
اسم ابنها قيرون ، الذى كان هو الابن الوحيد لقيصر ، الذى قتل بأمر أغسطس بعد
انتحار كليوباترا عام ٣٠ ق.م •
المعرب

وبذلك أنهى أغسطس آخر أعماله ، وراح يستعد لاستقبال النهاية - وفى عام ١٤ بعد الميلاد ظهرت بعض العلامات - - فقد أصاب البرق أحد تماثيله فأحرق حرف «ق» من كلمة «قيصر» - وكان أغسطس يفزع من البرق طوال حياته وكان يهرب منه ويختبئ فى القبو وكان يحمل تميمة لتحميه منه - وكان حرف القاف فى اللغة الأتروسكانية يعنى اله ، وكان يعنى فى اللغة اللاتينية رقم - ١٠٠ ، وكان معنى ذلك فى نظر أغسطس هو أنه سوف يموت ويصبح الها فى خلال ١٠٠ يوم - ومن باب التأكيد ظهرت علامة أخرى - فقد حلق نسر ضخّم من فوق رأسه وهو فى ميدان مارس ، ثم طار النسر الى مبنى البانثيون ثم استقر فوق اسم «أجريبيا» المنقوش هناك ، وكانت مخالبه مستقرة على حرف «أ» وهو أيضا أول حرف فى اسم أغسطس - وفى السماء ظهر مذنب ملتهب ، وكان شكله ينبئ عن قرب وفاة أحد العظماء -

ولم يبق أمام أغسطس من عمل يؤديه سوى أن يموت . -

وهناك على الشاطئ المقابل لبركان فيزوف توجد جزيرة كبرى الجميلة بشاطئها المقوس ذى المياه الزرقاء وتلالها الخضراء وسماؤها الصافية - ومثلما هى الآن مرتع الراحة والاستجمام فانها كانت كذلك منذ ألفى عام - وكان الذى اكتشف قيمتها السياحية هو أغسطس -

وكان أغسطس يزور الجزيرة زيارة عابرة ، وكانت معه ليفيا ولقد أعجب الاثنان بها - ولكن شيئا حدث فجعله يتشبث بامتلاكها - فقد كان يقف بجوار شجرة جرداء ،

وفجأة ظهر الاخضرار على فروعها وأغصانها . وكان تلك علامة لم يتردد أغسطس فى الأخذ بها . . فألا حسنا . وللتو اشترى الجزيرة من مدينة نابولى فى مقابل مدينة «اسشيا» .

ولقد قضى أغسطس مايقرب من أربعين سنة وهو ينام فى نفس سريره العادى فى قصر البالاتين . ولم يكن يسمح لنفسه الا بأجازات قليلة . وكان يقضى كل تلك الاجازات فى جزيرة كابرى . وكان يعتبرها خير مكان للكسل والاستجمام .

وبعد أن انتهى أغسطس من تسجيل مذكراته راح يقضى أجازته الأخيرة فى كابرى ، وكان تيبيريوس فى صحبته . وهناك كان أغسطس يقضى وقته فى الاسترخاء والاستمتاع بالمناظر الطبيعية ثم تبادل الحديث مع من حوله وكان ثراثيليس (المنجم) هو سميده المفضل . فكان يلقي اليه بأبيات من الشعر الاغريقى ويسأله عن صاحبها وكان ثراثيليس يقرظ الشعر ولكنه كان يعجز عن معرفة الشاعر . فكان أغسطس يضحك فى استمتاع وارتياح ، لأنه كان هو صاحب تلك الأبيات .

وكان على تيبيريوس أن يتوجه الى دالماسيا لآخاماد فتنة قبائل «كلاب النار» . وعندما غادر تيبيريوس كابرى صحبه أغسطس لعدة مراحل ، تكريما له وتأكيدا لحقيقة ولايته للعهد . وفى نابلى حضر الاثنان بعض الاحتفالات ثم غادروها الى بينيفنتو ، وهناك ودع أغسطس تيبيريوس ، ثم سار عائدا الى كابرى . ولكنه لم يكد يصل الى مدينة نولا حتى سقط صريع المرض . وكان من غرائب الأقدار أن والده (الحقيقى)

كان قد مات فى تلك المدينة • وفى منزل والده (١) وفى
حجرة نومه ، وفى نفس سريره ، رقد أغسطس ، ثم لفظ
أنفاسه الأخيرة •

وللتو أمرت ليفيا باخفاء الخبر عن الجميع ، وأحاطت
الدار بالحراس ومنعت الدخول والخروج ، وأرسلت وراء
تيبيريوس ليعود على عجل • وصحيح أن تيبيريوس كان هو
الوريث الشرعى لأغسطس وكان هو المرشح الوحيد لتولى
العرش ، ولكن دعائم النظام الامبراطورى كانت لم تثبت
بعد وكان يخالطها الكثير من المفاهيم الجمهورية • ولذا فان
خشية ليفيا من وثوب الطامعين فى العرش كان لها
مايررها •

وعاد تيبيريوس فى أسرع وقت ودخل حجرة أغسطس
وبقى فيها طويلا • ثم خرج ليعلن أن الامبراطور قد مات
وأنه قد تبادل معه قبل موته حديثا طويلا وتلقى منه النصائح
والتوجيهات وأن أغسطس أوصاه خيرا بالامبراطورية والشعب
وأسلم اليه قيادتهما •

ثم قام تيبيريوس بدفن أغسطس فى احتفال مهيب •
وكان ذلك فى تمام الساعة الثالثة بعد الظهر من يوم ١٩
أغسطس ١٤ ميلادية (وكان أغسطس هو الذى أطلق اسم
يوليوس قيصر على شهر يوليو وأطلق اسمه على شهر
أغسطس) •

(١) هو جايوس اكتافيان • كان من الطبقة المتوسطة • وأصبح حاكما لمقدونيا
وتزوج من ابنة أخت يوليوس قيصر ، وأنجب منها جايوس اكتافيان (أغسطس) عام
٦٣ م • العرب •

وبديهي أن ماحكاه تيبيريوس عن حديثه المتبادل مع
 أغسطس كان حفة من الأكاذيب ، ولكن الشعب صدقها وكان
 ذلك هو المهم - ولم ير سناتو كان يدعى نيوميريكوس
 أتيكيوس ، بأسا من أن يسهم في لعبة الدعاية فراح يقسم
 بأنه رأى روح أغسطس وهي تصعد الى السماء - وللتو أصدر
 السناتو قرارا بالاعتراف بأن أغسطس قد أصبح الها - ولم
 يبطل تيبيريوس في استغلال الفرصة فراح يبني على الفور
 معبدا لعبادة أغسطس -

الفصل التاسع

يوم في حياة الامبراطور

مع أن تيبيريوس كان في السادسة والخمسين من عمره حين تولى العرش فانه كان في أوج صحته - وكان ما يزال محتفظا بصفاته الأصلية - الصمت والانطواء والمشية البطيئة ورأسه منحني الى الأمام - ولكنه كان هو الامبراطور، وكان هو قمة السلطة ، ولم يكن فوقه أحد من البشر ، وكان يملك كل ما يحلم به الروماني من سلطة ومن ثراء ومن متعة -

ولكن كل ذلك كان قد جاء متأخرا فلم يعد للنبيذ ولا لمتع الجسد نفس طعمهما أيام الشباب - ومع فيبسانيا كان من الممكن أن يكون تيبيريوس امبراطورا سعيدا وأن ينجح بأكثر مما نجح أغسطس - أما في حالته تلك ، فانه كان امبراطورا أقرب الى التعاسة منه الى السعادة وكانت واجباته الرسمية تثقل عليه - وبدأ يعاني من الضيق ومن الكره ، وأيضا من الخوف على عرشه وعلى حياته -

وكان يبدأ يومه بالاستيقاظ ثم يستقبل ضيوفه وهو في

الفراش وكانوا ما بين سناتو وسفير وملك . وفى حوالى الثامنة صباحا كان يتناول افطاره مع عدد آخر من الضيوف . وبعد الافطار كان يستقبل الزوار من الأقارب والنبلاء والقادة والحكام . وابتداء من الظهر فانه كان عليه أن يحضر ويرأس احتفالات لا حصر لها ما بين دينية أو رياضية أو اجتماعية أو سياسية . أما بعد الظهر فانه كان عليه أن يحضر اجتماعات السناتو . فقد كانت مظاهر النظام الجمهورى مازالت باقية، وكان الامبراطور يعتبر سناتورا . وكان عليه أن يؤدي دوره فى السناتو بهذه الصفة . وكانت دار السناتو هى أيضا دار القضاء فكان عليه أن يحضر المحاكمات وأن يرأسها وأن يساهم فيها فى أحيان أخرى كمدافع أو كمدعى .

وعن دوره بصفته الكاهن الأكبر للديانة الأولمبية فانه كان عليه أن يؤديه بصفة مستمرة وكان عليه أن يدير شئون الكهنة والمعابد ، وكان عليه أن يقدم القرابين بنفسه فى مناسبات كثيرة . وفى الحقيقة فان أمثال تيبيريوس من الطغاة لا يؤمنون فى العادة بأى دين (والا لما طفوا وبغوا) وانما هم كانوا يستخدمون صفاتهم الدينية لكى يقنعوا الشعوب بالخضوع لسلطانهم . وكذلك كان تيبيريوس .

· وابتداء من أواخر النهار فان وقت تيبيريوس كان يخصص للمتعة ، كالمصارعات الدموية أو حفلات الرقص والغناء . ولم يكن تيبيريوس يميل الى اقامة حفلات المصارعات كثيرا لأنها كانت تكلفه الكثير من النفقات .

وفى المساء كان يبدأ حفل العشاء وكان تيبيريوس — كمادة الرومان — يرقد على بطنه ويظل يأكل حتى يمتلئ ،

تم كان ينقلب على جنبه اعلانا عن انتهاء العشاء • وطبيعي أنه كان يتناول العشاء مع الضيوف أيضا ، ولكن معظمهم كان من شعراء الاغريق أو المنجمين •

وهكذا كانت تسير حياة تيبيريوس على وتيرة رسمية مملة • وكان هو يكره تلك الرتبة في المعيشة ويفضل عليها أن يقود جيشا أو يسن قانونا أو يتبادل الأشعار وأخبار النجوم مع سماره •

ولكى يأمن تيبيريوس على عرشه وحياته ، فانه بدأ يبحث عن الأشخاص الذين يحتمل أن يتطلعوا الى العرش ، ثم راح يقتلهم الواحد بعد الآخر • وبديهي أن بوستموس أجريبا (ابن جوليا وحفيد أغسطس) كان هدفة الأول • ومع أن الضابط الذي بعث به تيبيريوس ليقتل بوستموس كان مسلحا ، ومع أنه فاجأ بوستموس وهو أعزل الا أن الأخير قاومه مقاومة هائلة وأصابه بعدد من الجروح الشديدة قبل أن يسقط قتيلا •

ثم التفت تيبيريوس نحو جوليا نفسها فشدد عليها الحراسة ورفض أن يستجيب لتوسلاتها بالعفو عنها • وفي غيبة كل ماكانت تصبو اليه من متع وطعام شهى ومعيشة رغدة ، وبعد أن ذوى حسنها ، تحطم قلبها وماتت بحسرتها •

وكان السناتو يمثل تهديدا له وزنه • ليس لأنه كان يمكن أن ينزع منه العرش ولكن لأنه كان من الممكن أن يحاول التدخل فى شئون الحكم أو أن يؤيد أحد الطامعين فى العرش • وعين تيبيريوس قائدا ماهرا لقيادة الحرس البريتورى (الذى كان موزعا على مدن شبه الجزيرة الايطالية) ثم أمره

بجميع الحرس فى روما • وكان شيوخ السناتو من الذكاء بحيث فهموا المعنى المقصود من ذلك ، ومن ظهور الحرس البريتورى فى استعراضات متتابة فى شوارع وميادين روما • ثم فاجأ تيبيريوس السناتو بلعبة رائعة ، فوقف بعد أربعة أسابيع من موت أغسطس على المنصة ووجه خطابه الى الشيوخ قائلا «سادتى اننى اتوسل اليكم أن تعفونى من الحكم وأن تعيدوا النظام الجمهورى • اننى أضعف من أن أقوم بذلك العبء الهائل • • عبء حكم الامبراطورية • ولا أحد سوى أغسطس المقدس كان يمكن له أن يحمل مثل ذلك العبء • دعونى أترك العرش وأكون مجرد سناتو بينكم» •

ولكن الشيوخ كانوا أذكى من أن يستجيبوا لتوسلات تيبيريوس المفتعلة وأن يتجاهلوا رغبته الحقيقية • ولذا فانهم رفضوا أن يجيبوه الى مطلبه وأصروا على أن يبقى امبراطورا • •

وبقى تهديد آخر ، كان يقضى مضجع الامبراطور ، وكان هو «جرمانيكوس» • فقد كان لتيبيريوس ولدان ، أحدهما من صلبه وهو دروسوس الأصغر ، أما الثانى فكان ابنه بالتبنى وكان هو جرمانيكوس «ابن أخت أغسطس» • وكان تيبيريوس قد تبناه بأمر أغسطس • وفى الوقت الذى كان فيه دروسوس مايزال فتى أقرب الى البلادة ، فان جرمانيكوس كان فى عنفوان شبابه وكان قائدا ممتازا • وكان يقود الجيوش فى ألمانيا وينتقل بها من نصر الى نصر • ومع أن جرمانيكوس كان جنديا مخلصا لامبراطوره ووالده بالتبنى تيبيريوس الا أن الشك كان قائما فى احتمال أن يفكر هو أو يغريه أحد بالتطلع الى الاستيلاء على العرش •

ولقد جاءت أحداث زادت من قوة ذلك الاحتمال - فقد ثار الجند في بانونيا وراحوا يطلبون زيادة مرتباتهم ، واعادة من قضوا وقتا طويلا في الخارج الى روما ، واعفاء الكهول من الجندية - وكان خطيب تلك الثورة هو ممثل سابق يدعى برسينيوس - ولقد استطاع برسينيوس أن يدفع بالجند الى التمرد على ضباطهم والى القيام لحسابهم الخاص بحملات سلب ونهب على القرى - ثم قام جندي يدعى فيبيولينس بتمثيل دور عجيب اذ راح يصرخ في وجوه الضباط ويتهمهم بأنهم قتلوا شقيقه ظلما - وبذلك استطاع أن يهيئ الوحدات على الضباط وكانت النتيجة هي أن تناول الجند ضباطهم بالضرب والاهانة ، ثم قبضوا عليهم وراحوا يديرون شئونهم بأنفسهم -

ولقد بادر تيبيريوس بارسال ابنه دروسوس ومعه قائده سيجانوس لاختاد تلك الفتنة وكان سيجانوس بطبيعة الحال هو القائد الفعلي - ولقد استطاع أن يخمد تلك الفتنة وأن يكشف عن كذبة فيبيولينس التي أهاج بها القوات -

وبعد أن تم اعدام برسينيوس وفيبيولينس هدأت الحال ، وعاد دروسوس وسيجانوس الى روما - ولكن أنباء التمرد كانت قد تسربت الى قوات جرمانيكوس فثارت بدورها، ولكن ثورتها اتخذت اتجاها خطيرا ، فقد راح الجنود الثائرون يغفرون جرمانيكوس بأن يعلن نفسه امبراطورا وراحوا ينادونه بلقب «قيصر» - ومع أن ثورتهم كانت تهدف الى تحسين أحوالهم وكانت مطالبهم هي نفس مطالب قوات بانونيا الا أن طريقهم الى هذه المطالب لم يقتصر على مجرد

التمرد وانما هم اضافوا اليه محاولة ضم جرمانيكوس الى صفوفهم عن طريق اغرائه بالعرش .

ولكن جرمانيكوس صمد فى مواجهتهم وحاول أن يقضى على تمردهم . وبدأ جرمانيكوس بترحيل أسرته لتكون بعيدة عن الخطر . وكان ابنه الطفل جايوس (الذى عرفه التاريخ بعد ذلك باسم كاليجولا) محبوبا من الجنود . ولذا فانهم لم يطيقوا فراقه . وراحوا يترامون على أقسام جرمانيكوس ويرجونه ألا يحرمهم من الطفل . واستجاب جرمانيكوس اليهم واستبقى الطفل معه . وبذلك الطريقة البسيطة خمدت الفتنة وعاد الجنود الى الطاعة والنظام . ولكى يشغلهم جرمانيكوس فانه عبر بهم نهر الراين وقادهم فى حملة منتصرة ضد الالمان .

وفى روما كان تيبيريوس يتتبع تلك الأنباء بقلق من الفتنة أولا ثم بارتياح لانتهائها ، ثم بشكوك متزايدة ازاء جرمانيكوس .

السلام الروماني

وعلى يدى تيبيريوس بدأ عهد السلام الروماني Pax Romana فقد كانت الجمهورية قد دفعت بكتائب الليجيون حتى غطت معظم حدود العالم المعروف وقتها • وكان يوليوس قيصر وأغسطس قد استأنفا الغزو حتى مناطق القبائل المتبربرة • كما أنهما أشعلا الكثير من الحروب الأهلية والمعارك الداخلية •

وقد وضع تيبيريوس نهاية لكل ذلك ، وأعلن أنه «لاغزو ولا توسع بعد اليوم» • ولم تكن أسباب ذلك القرار عسكرية • فقد كان تيبيريوس من الشجاعة ومن الدراية بفتون الحرب بحيث لم يكن يخشاها • وانما كانت أسبابه اقتصادية • فقد كان يريد لقوات الاحتلال الروماني أن تستقر في المستعمرات وأن تحمي عملية جباية الضرائب وتؤمنها • كما أن أى حروب جديدة كانت جديدة بأن تكلف الخزانة غالبا •

والواقع هو أن نظام تحصيل الجزية وجمع الضرائب كان نظاما يحتاج الى التفرغ لتنظيمه ومراقبته • وكان وصول

عشرة جنيهاً فقط إلى الخزنة العامة يتطلب تحصيل مائة على الأقل . وكانت التسعين الفاقدة تذهب إلى جيوب القادة والحكام ومحصول الضرائب . وكانوا يقهرون دافعي الضرائب عليها ويستخرجون منهم أضعاف الضرائب المقررة . ولم يكن يهمهم في شيء أن يكون دافع الضرائب قادراً أو عاجزاً عن دفع ما يطلبونه منه . لأنه كان من الممكن في حالة عجزه عن الدفع أن يتم تحصيل المبلغ عن طريق بيعه كعبد . ولم يكن تيبيريوس قادراً على أن يغير من هذا النظام الظالم ، وإنما هو استطاع أن يخفف من وطأته قليلاً . فقد كان التغيير المستمر للحكام والقادة ومحصول الضرائب في المستعمرات ، يدفعهم إلى محاولة استنزاف أقصى قدر ممكن من شعوبها قبل أن يتركوا مناصبهم . وقد أوقف تيبيريوس ذلك ، ووفر الاستقرار للحكام والقادة ومرءوسيه ، وأبطل نظام التغيير المستمر في مناصبهم . وبذلك كان الحاكم الصالح يجد لديه الفرصة لتوفير الأمن والرخاء للبلد الذي يحكمه . أما الحاكم السيئ فإن استقراره في منصبه كان يجعله يخفف من وطأة مظالمه ويتحول إلى شخص سمين بليد . . . وأضاف تيبيريوس إلى ذلك حسنة أخرى فأوقف فرض أي ضرائب جديدة . ثم راح يحسن في نظام تحصيل الضرائب الأصلية حتى راحت أكادس الذهب تتدفق على روما . ثم أنه كان يعد ذلك معتدلاً في الانفاق سواء على نفسه أو على مرافق الدولة . ومع أنه عاش مرفهاً كامبراطور إلا أنه لم يكن سفيهاً من الناحية الاقتصادية ، وكان ينمي ثروته الخاصة ويتاجر بمهارة . وكانت النتيجة هي أنه ترك في الخزنة العامة عند موته ما يعادل ١٠٠ مليون دولار بينما كان كل ماتركه أغسطس فيها هو خمسة ملايين فقط .

ولم يكن المال فقط هو كل ما كان يرد من المستعمرات .
 فقد كانت هناك أيضا المحصولات والخضراوات . فكان القمح
 يجيىء من مصر ، وكانت الخضراوات تجيىء من ألمانيا وبلاد
 الفال ، وكانت البهارات تجيىء من الشرق . وكانت أثمان تلك
 المحصولات والخضراوات غالية بحكم تكاليف نقلها الباهظة .
 ولم يرتح تيبيريوس الى ذلك ، فراح يشجع ملاك الأرض فى
 ايطاليا على زراعتها بالمحاصيل والخضراوات بعد أن كانوا
 يأنفون من ذلك ويفضلون عليه تربية الضأن والماشية . وقد
 كافح تيبيريوس كثيرا فى سبيل تحقيق هدفه ، بالنصح
 وبالخطب والقوانين . ولكنه لم يستطع أن يحقق نجاحا
 كبيرا . بل ان محاولاته كادت أن تنتهى بكارثة . فبمجرد
 أن أصدر قانونا يحتم على كل صاحب رأسمال أن يستثمر
 ماله فى الأرض الايطالية راح كل انسان يسحب أمواله من
 البنوك ويعلن افلاسه . حتى لقد اضطر تيبيريوس الى دعم
 الميزانية المنهارة بما يوازى مليون دولار من ماله الخاص ،
 ثم لم يعد الى المحاولة بعد ذلك .

وفى السنوات الأولى من حكمه حاول أن يكون
 ديمقراطيا وأن يتجنب تدمير القيم الجمهورية فرفض اقتراحا
 للسناطو بتسمية أحد الشهور باسمه (كما حدث لشهرى يوليو
 وأغسطس) وكان تعليقه على الاقتراح هو «وماذا سوف
 تفعلون اذا بلغ عدد القياصرة ثلاثة عشر ؟» ، ثم أبدى
 غضبه حين خاطبه أحد الشيوخ بلقب «السيد الجليل» .

ولكن ذلك لم يكن يعنى طبعاً أنه لم يكن يتابع وقاية
 عرشه بكل السبل بما فيها القتل .

وكان تيبيريوس يعرف أنه غير محبوب من الناس . فقد كانت طباعه الانطوائية المتجهمه لاتساعد على الحب . ومع أن التماثيل كانت تقام له فى كل مكان فانه كان يعرف أن مصدر ذلك كان هو التقاليد وليس الحب . ولم يكن المواطن الرومانى يعرف أين يقف من تيبيريوس . فقد كان الأخير يطعم ضيوفه بسواء ذات يوم ثم كان يطعم ضيوفه فى اليوم التالى ببقايا دائدة الامس . وكانت تغلب عليه السماحة أحيانا (كما حدث حين رفض للسناتو اقتراحا بمحاكمة كل من يتحدث بسوء عنه) ، ولكنه فى أحيان أخرى كان يمعن فى القتل وسفك الدماء كما حدث عندما صاح أحد الفوغاء فى ذات جنازة - مخاطبا الميت - «أبلغ أغسطس بأن وصيته بتوزيع الهبات على أهل روما لم تنفذ» . وللتو أمر تيبيريوس بسحب الرجل من قدميه وبالقائه فى السجن . ثم حاكمه وحكم عليه بالموت وقال له «أبلغ أبى تلك الرسالة بنفسك» . ثم أمر باعدام الرجل خنقا على الفور .

وكان من ضمن واجبات الامبراطور أن يزور الولايات والمستعمرات ليفتش على القوات والموظفين ويجتلب صداقات شعوبها . ولقد حاول تيبيريوس كثيرا أن يؤدي تلك الزيارات ولكن مشاغل الحكم وتتابع المشاكل فى روما كانا يجبرانه على الغاء الزيارة بعد أن يكون قد قرر موعدا وجهز لها السفن والمطايا . ولذا فان الرومان راحوا يسخرون منه ويطلقون عليه اسم كاليبيديس وكان كاليبيديس ممثلا هزليا وكانت هزليته المفضلة هى التظاهر بالاستعداد للجري ولكنه كان لا يتحرك من مكانه .

ومع تتابع الأعباء على تيبيريوس فان اعتماده على قائده

سينجانوس راح يتزايد حتى أصبح سينجانوس هو عينيه وأذنيه ، ولم يعد تيبيريوس يثق بأحد غيره .

ومع أن تيبيريوس كان شديد الحذر من كل من يحتمل أن يطمع فى العرش أو ينافس فى السلطة وكان دائم المتابعة لأخبارهم ونواياهم فان منافسا جديدا ظهر فى شخص والدته ليفيا . فقد كانت هى التى سهلت له سبل الحصول على ولاية العهد ، وكانت هى التى دبرت له الأمور حتى استقر على العرش . كما أنها كانت قد تعودت على ممارسة شئون الحكم مع أغسطس . ولذا فانها راحت تتشبث بحقها فى مشاركة ابنها فى الحكم ، وكان الواقفون على بابها أكثر من الواقفين على باب تيبيريوس . وكان أول منشور امبراطورى أصدره تيبيريوس يحمل توقيعه وتوقيعها معا . بل ان مجلس السناتو كان قد اقترح تسمية أحد الشهور على اسمها «ليفىوس» ولكن الاقتراح لم ينفذ بسبب رفض تيبيريوس لاقتراح مماثل باطلاق اسمه هو على أحد الشهور ، كما ذكرنا من قبل .

وعلى أى الأحوال فان ليفيا كانت مصدر تعب وضيق لابنها ، ولكنها بطبيعة الحال لم تكن مصدر خطر على حياته وعرشه .

ولقد ظهر عبد يدعى كليمنس (وكان عبدا لبوستموس) وجمع عددا من العبيد وقادهم فى ثورة كان يهدف منها الى قتل تيبيريوس ، انتقاما لسيده بوستموس . ولقد تم القضاء على كليمنس وثورته ، ولكن بعد جهد وخسائر كثيرة .

ومن بعده راحت تدور مؤامرة لقتل تيبيريوس . وكان بطلها شابا قويا وسانجا من النبلاء ، يدعى ليو . فقد راح

كل ساخط على تيبيريوس يوسوس فى أذن ليبو بأنه هو الأحق بالعرش وان كل ماعليه أن يفعله هو أن يقتل الامبراطور . وكانت تلك المؤامرة من السذاجة بحيث علم بها الامبراطور وعلم بها أهل روما . أما الوحيد الذى ظل يجهل أن نواياه قد انكشفت فكان هو ليبو نفسه . وكان تيبيريوس يستقبله وهو على غاية الحذر منه وكان لا يجلس معه وحده أبدا ، وفى أغلب الأحيان كان دروسوس الأصغر يجلس معهما ويده على سيفه .

ولقد صبر تيبيريوس على ليبو أكثر من سنه . وكان فى خلالها يحاول الحصول على الأدلة اللازمة لادانته . ولكن كراهية الناس لتيبيريوس جعلتهم يتجنبون الشهادة ضد ليبو . ولكن تيبيريوس وجد السبيل للحصول على مايلزمه من شهود . فقد كان عبيد ليبو على علم بنواياه ، ولكن المشكلة كانت كامنة فى أن القانون كان يمنع الأخذ بشهادة العبد ضد سيده . وبكل بساطة أمر تيبيريوس بأن تشتري الدولة عبيد ليبو . وبعد عذاب رهيب نطق العبيد وشهدوا ضد ليبو وبادر الأخير بالانتحار . وكان ذلك مصدر حنق تيبيريوس الذى راح يصيح «لقد أفلت ليبو من يدى» . فقد كان قد أعد له من العذاب ألوانا مروعة .

وعن تعذيب الشهود نقول أنه كان أمرا عاديا جدا . بمعنى أن القضاء الرومانى لم يكن يأخذ أبدا بصحة أقوال الشاهد الا بعد تعذيبه ، للتأكد من صدق تلك الأقوال . وكان أفضل أنواع التعذيب هو خلع كل مفاصل الشاهد ، وبذلك كان يصبح عاجزا عن الانتحار وكان يظل حيا وقادرا على النطق . وعن القسم الذى كان يؤديه الشاهد فانه كان من

باب الشكليات فقط لأن عقيدة الرومانى فى الآلهة الأوليمبية كانت تتلخص فى :

- ١ - ان الآلهة ليسوا بأفضل منى ولكنهم أقوى فقط .
- ٢ - انه من الممكن رشوة الآلهة بالقرايين وأن العمل الصالح لايعنيهم .
- ٣ - ان الآلهة لاتهمها الأخلاق فى كثير أو قليل .
- ٤ - أنه من المحتمل ألا يكون لتلك الآلهة وجود على أى حال .

على أن تيبيريوس لم يخسر كل متعته بانتحار ليبو ، فقد كانت هناك أملاك ليبو الواسعة . ولذا فان تيبيريوس أمر باستمرار المحاكمة ، وحصل من المحكمة على حكم بمصادرة تلك الأملاك .

وفى عام ١٧ بعد الميلاد أمر تيبيريوس جرمانيكوس بالعودة من ألمانيا الى روما . وعاد جرمانيكوس واستقبل بالحفاوة والحفلات وراحت الجماهير تطوقه بالزهور والهتافات . ولم يرتح تيبيريوس لذلك .

وانتهز تيبيريوس فرصة نشوب بعض المتاعب فى الشرق الأدنى فبادر بتكليف جرمانيكوس باخماد فتن القبائل هناك ، وأرسل معه قائدا كبيرا يدعى سينيوس بيزو . وهناك مات جرمانيكوس .

وقد نقلت جثته الى روما . وفى الطريق أقيمت له مئات الجنازات ثم دفن فى احتفال كبير ، تراسه تيبيريوس بنفسه . ولم يسكت الشعب على تلك الميتة الفجائية المريبة .

وللتو وجهت الاتهامات الى بيزو وقبض عليه وبدأت محاكمته • وكما فعل ليو من قبل ، انتحر بيزو ، ولكن انتحاره كان مريباً • فقد وجد مذبوحاً وكان السيف ملقى بجواره ! • وانطلقت الاشاعات لتتهم سيجانوس بذبح بيزو ، ولكن تيبيريوس لم يهتم ولم يفكر فى التحقيق مع سيجانوس ، لأنه (تيبيريوس) كان المتهم الأسمى بقتل بيزو وسم جرمانيكوس •

وكما فعل مع ليو ، استمر فى اجراءات محاكمة بيزو ، ثم أصدر حكمه بمصادرة أملاكه • وحتى اليوم فان الحقائق الخاصة بقضية بيزو وجرمانيكوس لم تظهر بعد •

ومن المهم هنا أن نشير الى أن الأدلة التى اتهم سيزو وأدين على أساسها لم تكن تزيد على تماثيل سحرية عليها اسم جرمانيكوس • فقد كان الرومان يؤمنون بأن السحر يقتل •

الفصل الحادى عشر

متاعب الحكم

ماتت فيبسانيا ، بعد ثلاثين سنة من طلاقها من تيبيريوس .
و بموتها فقد تيبيريوس آخر من كان يحبه ، ولم يبق له بعد .
ذلك سوى الكره ، فعاش به حتى آخر حياته ، وكان يكره حتى .
ابنه الوحيد (من فيبسانيا) دروسوس .

وفى افريقيا نشبت ثورة عارمة بقيادة ثائر اسمه
تاكشارينوس . ولقد استطاع هذا الثائر أن يقضى مضجع
الامبراطور . فقد كان يظهر ويوجه ضربات ساحقة الى
القوات الرومانية ثم يختفى بين الجبال . كما أنه استطاع
ذات مرة أن يوقع بقوة كبيرة فى كمين قرب نهر باجيدا . ولم
تقتصر الكارثة يومها على مجرد هزيمة تلك القوة وانما
ضاعف من وطأتها هروب جنودها فى زعر مهين . وللتو أمر
الامبراطور بجمع هؤلاء الهارين فى صفوف ، ثم أمر بأن
يجلد كل عاشر من الجنود حتى الموت .

وفى روما كانت توجد سيدة ثرية اسمها فولفيا . وقد
وقعت تلك السيدة بين أيدي أربعة من النصايين اليهود ،

الذين أقنعوها باعتراف الدين اليهودى ثم أقنعوها بأن تتبرع بثروتها للهيكل فى أورشليم وتطوعوا بتوصيل تلك الهبة الكريمة الى الهيكل . ولكنهم كانوا من الغباء بحيث انكشفت لعبتهم قبل أن يفادروا روما ، وأسرع زوج فولفيا بتقديم شكوى ضدهم الى الامبراطور .

وفى ذلك الوقت كانت توجد فى روما جالية يهودية كبيرة . ولم يكن أفرادها من المواطنين الرومان ، ولكنهم لم يكونوا من العبيد . ولذا فانهم استطاعوا أن يعيشوا فى رغد وأن يمارسوا فنون التجارة التى كانوا يجيدونها .

وتقدم سيجانوس باقتراح بمعاقة اليهود على ماجناء النصابون الأربعة . ولم يكن تيبيريوس (بصفته الكاهن الأكبر للديانة الأولمبية) راضيا عن الديانات الأخرى ، ولذا فانه لم يتردد فى الأخذ بنصيحة سيجانوس فأمر بتجنيد أربعة آلاف من اليهود ثم بعث بهم الى جزيرة ساردينيا حيث قضت عليهم الملاريا ، ثم نفى باقى الجالية من روما .

وكان تيبيريوس فى ذلك الوقت قد بلغ الستين من عمره، وكان بصحة ممتازة ، ولكنه كان وجيدا بغير حب أصيل يؤنسه ويرقق من طباعه . ولذا فانه راح يضيق بالعمل والواجبات الرسمية . وكان يسلى نفسه بالتصدي لبعض المشاكل بالعلاج . ومن ذلك أن المجرمين كانوا يحصلون على حصانة من العقاب ان هم احتموا ببعض المقدسات (مثل لمس تمثال مقدس أو الدخول فى محراب معبد) . وقد درس تيبيريوس القوانين الصادرة بهذا الشأن عبر خمسة قرون واستطاع أن يضع القوانين التى تحرم المجرمين من حقوق الحصانة .

وكان قانون «الأبوة» من بين القوانين التى أصدرها أغسطس لحماية كيان الأسرة الرومانية النبيلة . وكان هذا القانون يحتم الزواج والانجاب على النبلاء وكان لايعترف بالأبناء غير الشرعيين . وقد ألغى تيبيريوس ذلك القانون ، لأنه كان قانونا غير واقعى ، وكان معظم أبناء الأسرة الكبيرة من أبناء الجوارى . ثم وجه تيبيريوس التفاتة بعد ذلك نحو «قانون الخيانة» وكان ذلك القانون مطاطا بحيث يسمح بتوجيه تهمة الخيانة ، ليس فقط نحو من يخون الدولة أو الامبراطور فعلا ، وانما أيضا نحو من يسخر منهما أو يتفكه عليهما . وكانت خطورة هذا القانون وغيره كامنة فى أن نظام القضاء الرومانى كان يسمح لأى مواطن بأن يوجه الاتهام وبأن يحصل فى مقابل ذلك على مكافآت كبيرة . ومن هنا راحت الاتهامات تترى على رءوس المواطنين وصارت الوشاية والتجسس والنميمة من أمراض المجتمع الرومانى الوبائية . وحاول تيبيريوس أن يعالج ذلك بتقرير عقوبات شديدة على كل من يوجه اتهاما كاذبا أو ملفقا . ولكن ذلك لم يخفف من تلك الأوبئة لأن المجتمع الرومانى كان قد استشرى فيه الطمع والفساد .

ضاق تيبيريوس ذرعا بذلك الحال ، وراح يبحث عن المتعة ويعيش بالليل أكثر مما يعيش بالنهار . وكانت متعته العقلية تدور حول أحاديث المنجمين أمثال ثرائيليس ، وبعض المناقشات فى الأدب الاغريقى . ولكن متعته الكبرى كانت فى الجنس . وكان المجتمع الرومانى يتسامح فى هذه الناحية كثيرا بالنسبة للرجال . وكان للرجل الرومانى الحق فى أن يمارس الجنس مع البغايا والجوارى كيف يشاء . وحتى

رذيلة الجنسية المثلية كانت تعد شيئا عاديا وكان كل من
يوليوس قيصر وأغسطس منهما بها .

ولذا فان تيبيريوس انغمس في المتع الجنسية بغير
حدود .

أما عن ابنه دروسوس فانه لم يكن مصدر راحة له . فقد
كان بليدا لايميل الى الدراسة وكانت هوايته الكبرى هي
مشاهدة مناظر القتل في الملاعب أو ساحات الاعدام . فاذا
أعوزته حفلات الملاعب أو مناسبات الاعدام فانه كان يشبع
هوايته الدموية بالصيد وقتل الحيوانات .

وقد تزوج من فتاة جميلة تدعى ليفيلا وأنجب منها
توأمين (وكانت ليفيلا أخت جرمانيكوس) . ولم تكن ليفيلا
مخلصة لدروسوس . وكان لها عشيق وكان عشيقها هو
سيجانوس . .

ومع أن تيبيريوس لم يحب دروسوس فانه كان يرى فيه
الوريث الوحيد والطبيعي للعرش . ولذانه فانه صدم صدمة
كبيرة حين مات دروسوس بعد مرض قصير . وكانت النتيجة
هي أنه انطوى على نفسه انطواء تاما وأسلم معظم أعباء
الحكم الى سيجانوس . وفي الحقيقة فان دروسوس لم يمت
بالمرض وانما هو مات بالسم . وكان قاتلة هو سيجانوس ،
بالاشتراك مع ليفيلا .

الفصل الثانى عشر

سيجانوس يتآمر

كان سيجانوس أنموذجا للرجل الطموح الممدوم الضمير وكان هدفه المحدد هو جمع أقصى قدر من السلطة فى قبضته • وقد حقق من ذلك الكثير عن طريق استئثاره بثقة تيبيريوس • وكانت خطوته التالية هى وراثة العرش • ويصفه المؤرخ تاسيتوس فيقول «انه كان رجلا متين البنيان، جريئاً وطموحا الى أبعد حد • أما أمام الناس فانه كان يتظاهر بالكرم والتواضع» • وكانت حياته كلها عبارة عن خطوات ومغامرات محسوبة فى سبيل مطامعه • وحتى علاقته الاجرامية بليفيلا كانت محسوبة بدقة •

فقد كان سيجانوس بغير أسرة وبغير أصدقاء • وكان وجود دروسوس يحول بينه وبين العرش • ولذا فانه اتجه الى تحقيق مطالب ثلاثة هى ازالة دروسوس من الوجود وانشاء أسرة والحصول على أصدقاء أقوياء • وكانت علاقته بليفيلا تهدف الى ذلك كله •

وكانت بداية سيجانوس تتسم بالوصولية والنفعية •

فعندما كان شابا يافعا لم يتردد فى ممارسة الجنسية المثلية مع واحد من أكبر أثرياء روما وأقواهم نفوذا ، وهو أبيشيوس ، الذى كان مريضا بالشذوذ • وكان أبيشيوس كريما متلافا • وكان يطعم أصدقاءه لونا من ابتكاره • ومازال هذا اللون يعيش على الموائد حتى اليوم ، وهو طبق الفواجراه (الكبد والقوانص المفرومة) وفى مقابل المتعة الجنسية ، قدم أبيشيوس سيجانوس الى جايوس ، أعز أصدقاء أغسطس • وعندما مات جايوس أسرع سيجانوس وجعل نفسه تابعا لتيبيريوس • وقد مات أبيشيوس منتحرا بعد أن أفلس تماما •

وكان تيبيريوس يطلب لنفسه تابعا يستطيع أن يأتنيه على الكثير من المهام التى كانت تثقل عليها • ولقد استطاع سيجانوس أن يكون هو ذلك التابع • وبذلك أصبح قائدا للحرس البريتورى • وصار هو المستشار الأوحى لتيبيريوس ، وكان يجيد تبين رغبات تيبيريوس ويوافقه عليها وينفذها له • وكان يدأب على التجسس والبحث عن المعلومات • وبذلك استطاع أن يكتشف عددا من الاشاعات والمؤامرات وأن يبلغ تيبيريوس بها •

وأخيرا فانه استطاع أن يكسب ارتياح تيبيريوس اليه (ليس الحب ، فلم يكن عند تيبيريوس من الحب شيء) وكان هو رفيقه الدائم على المائدة • وكانت أسرة سيجانوس من العامة • ولكنه (عن طريق نفوذه وعلاقته بتيبيريوس) استطاع أن يرفع أفرادها الى مرتبة النبلاء وأن يعينهم فى أكبر المناصب •

ومع أن مطامع سيجانوس (لما هو أكثر من ذلك) لم تكن

بحاجة الى ماثيرها فانه من الثابت أن دروسوس كان يكرهه وأنه لطمه ذات يوم على وجهه • ويرى تاسيتوس أن تلك اللطمة كانت هي التي أوحى لسيجانوس بفكرة قتل دروسوس • ولكن دروسوس - على أى الأحوال - كان عقبة فى طريق سيجانوس • وكان لابد لسيجانوس من حليف يؤازره على التخلص من دروسوس • ووجد ذلك الحليف فى شخص ليفيلا •

ولعب سيجانوس لعبته معها بنجاح • فقد كان يعرف أنها (على جمالها المفرط) كانت فى طفولتها بليدة غير حسنة الملامح ، وانها لم تلق فى طفولتها الحب والاعجاب الذى تطلبه أى فتاة كما أن زواجها بدروسوس كان زواجا تقليديا ، وكان دروسوس من الأنانية والفساد بحيث لم يعطها الحب • ولذا فان سيجانوس استطاع أن يستولى عليها (قلبا وجسدا) بالفزول البارع المتتابع • وبعد أن أصبح عشيقها صار من السهل عليه أن يحرضها على التخلص من دروسوس ويلوح لها بمختلف المطامع ، ومنها أن تصبح زوجته وأن يصبح أحد توأميها هو الامبراطور بعد تيبيريوس ، على أن يكون سيجانوس هو الوصى على العرش طبعاً ، كما أنها سوف تكون أم الامبراطور وزوجة الوصى على العرش فى آن واحد • ولم تكن ليفيلا بحاجة الى الكثير من الاقناع فقد كانت تحب سيجانوس وتكره دروسوس • كما أن سيجانوس كان فى ذلك الوقت قد أصبح هو الحاكم الفعلى للامبراطورية بعد أن انغمس تيبيريوس فى ملذاته وأسلم اليه كل مقاليد الحكم • ولم يعد أحد يستطيع أن يقابل الامبراطور الا عن طريق سيجانوس ، وحتى تلك المقابلات كادت أن تنقطع تماما بعد

أن احتكر سيجانوس لنفسه حق مقابلة زوار الامبراطور .

وأخيرا فقد كانت قيادته للحرس البريتورى تجعله أقوى رجل فى الامبراطورية . لأن ذلك الحرس كان هو القوة المقاتلة الوحيدة لمسافة مئات الأميال من حول روما ، وكان رجاله من المنتقين بدقة ، وكانوا يحصلون على ثلاثة أضعاف المرتبات العادية ، وكان ولاؤهم كله لسيجانوس .

وكان سيجانوس بحكم كل تلك العوامل ، هو الحاكم الفعلى للامبراطورية وكان كبار الموظفين والحكام من أتباعه . وعلى سبيل المثال فانه كان قد عين واحدا من أتباعه حاكما على فلسطين . وقد خلد التاريخ اسم ذلك الحاكم لانه كان هو الذى استجاب الى طلب اليهود لصلب المسيح ، كما أنه كان هو الذى أطلق اسم ثيبيريوس على أكبر بحيرات فلسطين ، التى مايزال اسمها حتى الآن هو بحيرة «طبرية» وكان اسم ذلك الحاكم هو «بونتيوس بيلا» .

وفى عام ٢٣ ميلادى كانت مؤامرة سيجانوس على حياة دروسوس قد اكتمل نضجها . ومات دروسوس مسموما . وكانت الجريمة شبه كاملة ، لأن سيجانوس كان قد دبرها بدقة ونفذها بصبر وهدوء . وكان قد اشترى ذمة يوديموس (طبيب ليفيلا) وليجدوس (العبد الذى كان يدس لدروسوس السم فى الطعام) . وكان السم الذى قتل دروسوس سما بطيء التأثير ، حتى يكون موته شبه طبيعى وينسب الى المرض . وفى الواقع أن تاريخ الجريمة سوف يذكر لسيجانوس أنه كان من الصبر والمهارة بحيث استغرق أكثر من ثمان سنوات فى تدبير وتنفيذ مقتل دروسوس . وكان الطبيب يوديموس هو الذى يدبر اللقاعات بين سيجانوس

وليفيلا • فقد كان يكفي أن تتظاهر بالمرض وتطلب الطبيب
فكان يوديموس يمنع زيارتها ويقف حارسا على خلوتها
بسيجانوس •

ولكى تتأكد ليفيلا من وفاء سيجانوس طلبت منه أن
يطلق زوجته «أبيكاتا» ففعل • وبذلك لم يبق هناك حائل
بين سيجانوس والعرش سوى تيبيريوس • ولكن تيبيريوس لم
يكن عقبة قوية لأن موت دروسوس أجهز على البقية الباقية من
تماسكه • ولم يكن من فرط الحزن ، لأن تيبيريوس لم يكن
يحب ابنه ، ولكن ذلك كان من فرط خيبة الأمل في أن يكون
وريثه على العرش هو ذلك الابن • وبعد موت دروسوس أسلم
تيبيريوس كل سلطات الحكم الى سيجانوس وصار امبراطورا
بالاسم فقط ، وعاش للمتعة وللحقد وحدهما •

وكانت خطوة سيجانوس التالية هي الزواج من ليفيلا ،
وبذلك يصبح هو من أفراد البيت الامبراطوري •

وطبقا للتقاليد كتب سيجانوس خطاب رجاء الى تيبيريوس
طالباً اذنه للزواج من ليفيلا • وكانت المفاجأة ، فقد اعتذر
تيبيريوس عن اجابة ذلك الطلب • وحتى اليوم فان أحدا
لا يعرف لماذا فعل تيبيريوس ذلك ، لأن سيجانوس كان رجله
المفضل • • فلعلها كانت نوعا من الغيرة على زوجة ابنه
الراحل •

وحين اطمأن سيجانوس الى أن اعتذار تيبيريوس لم يصدر
عن أى شك فيه أو في طبيعة موت دروسوس ، راح يفكر في
أنسب السبل لازاحة تيبيريوس بعيدا عن روما • وواتاه
الحل • فقد كان تيبيريوس سعيدا في جزيرة رودس • •

فلنبحث له عن جزيرة أخرى يستمتع فيها • وكان سيجانوس يعلم أن تيبيريوس كان معجبا بجزيرة كابري وكان يرى فيها مكانا مثاليا للراحة والاستجمام كما أنه يطمئن الى حصانتها ضد العدوان لأنه لم يكن لها سوى مدخل ضيق يصلح لرسو السفن •

وأوحى سيجانوس الى المنجمين بأن ينصحوا تيبيريوس بالسفر والاستجمام بعيدا عن روما ، ثم ابتكر مناسبات تدعو للسفر ، كافتتاح معبد فى كامبانيا وملعب فى جهة أخرى • وظل به حتى حط رحاله فى كابري •

وحققت خطة سيجانوس (فى ابعاد الامبراطور عن روما) نجاحا مثاليا • اذ لم يعد الأخير بعد ذلك قط الى روما •

وفى الطريق حدث حادثان كبيران • فقد كان تيبيريوس يتناول الطعام فى بيت واحد من أثرياء الريف ، وكان البيت يدعى «الكهف» لأنه كان مشيدا داخل كهف كبير • وأثناء تناول الطعام انهار الكهف على الضيوف • وللتو وثب سيجانوس وراح يحمى امبراطوره بجسده من الحجارة المتساقطة وأنقذ حياته • وبذلك كسب عرفان الامبراطور بالاضافة الى ثقته السابقة به •

أما الحادث الثانى فكان كارثة مهولة • فقد دعى الامبراطور الى حضور حفلة مصارعات فى ملعب مدينة فيدينا • وكان الملعب يتسع لخمسين ألف متفرج • وكان بناء الملعب واهنا • ولذا فانه انهار بالخمسين ألف أثناء الحفلة ولم ينج واحد من هذا العدد من القتل أو الاصابة بكسر أو بجراح • أما الامبراطور وصحبه فلم يصيبهم أى أذى • ولقد

صرخ خليفته «كاليجولا» . . . الذى كان مجنوناً وسفاحاً رهيباً ، وراح - بعد ماتولى العرش - ينعى حظه السيء الذى حرمه من أن تحدث مثل هذه الكارثة الدموية فى عهده «لماذا يذهب تيبيريوس بكل تلك المتعة؟؟ لماذا لا تحدث كوارث مثلها فى عهدى؟» .

وهكذا افتتح تيبيريوس بعض المعابد وشاهد بعض الاحتفالات وأمر بمساعدة ضحايا ملعب فيدينا ببعض المعونات الرمزية ثم استقر فى كابرى .

الفصل الثالث عشر

جعيم المتعة فى كابرى

وفى كابرى بدأت صورة تيبيريوس فى التغير الى الأسوأ
فصارت حالكة السواد رهيبة الملامح •

فقد كان قد بلغ السابعة والستين من عمره • وكان
قيصرا • وكان بين يديه كل ما يحقق له ما يصبو اليه من
متع • وعندما شعر تيبيريوس بأن العمر يكاد أن يفلت من
بين يديه راح يعب من المتعة بشراهة • ولكنها لم تكن المتعة
التي تتسم بالسعادة والصور الانسانية ، وانما كانت تنحصر
فى عنصريين لا ثالث لهما هما الجنس والعدوان • ومع أنه
كان ما يزال بصحة جيدة الا أن الشيخوخة كانت قد بدأت
تترك بصماتها عليه فبدأ وزنه يهبط وراحت البقع تكسو
وجهه ، حتى لقد راح الشعب يهمس بأنه انما هرب الى
كابرى لكى يخفى وجهه المشوه عن الناس • وصار امبراطورا
على كابرى فقط • أما مقاليد الحكم فكانت فى يد سيجانوس •
وركز تيبيريوس كل همته فى كابرى فبنى هناك اثنتى عشرة
فيلا • وكانت كل فيلا تنافس الأخريات فى البذخ والفخامة •

فبين تلك الفيلات (التي كانت على مسافات متباعدة وكثت تحيط بالجزيرة) راح تيبيريوس ينتقل بحاشيته ويغترف من المتع أقصاها وأقصاها • وفي حدائق الفيلات انتشرت التماثيل والنافورات وأحواض الزهور • كما بنى أيضا عددا من الكهوف الصناعية وملأها بكل مطالب الترف والمتعة ، من أدوات ورياش ومخازن للخمر ومخادع للجنس ، ومن البحيرات الصناعية كانت تسبح فيها الأسماك المقدسة وتسير فى قنوات شفافة ملتوية • وهناك كان المنجمون يراقبون حركاتها ويبنون عليها تنبؤاتهم • وفى كهوف أخرى كانت هناك أحواض للسباحة • وفى تلك الأحواض كان تيبيريوس يستحم مع النساء والصبية المخصصين لمتعته •

ولم تكن كل المباني التى أقامها مخصصة للترف وإنما كان بعضها مخصصا لسجن وتعذيب أعدائه ، وما كان أكثرهم • وبعد أن انتهت إقامة كل المنشآت راح تيبيريوس يستدعى فلاسفة الاغريق والمنجمين والشعراء والفنانين ويوفر لهم حياة الأمراء • وإلى أبعد أجزاء الامبراطورية ذهب رسل الامبراطور وراحوا يبحثون عن الراقصين والراقصات وأهل الطرب ويبعثون بهم الى كبرى • ولكنهم كانوا يبحثون بالأكثر عن أهل فن معين هو فن تقديم العروض الجنسية بكل ألوانها الطبيعية والشاذة ، وكانوا يدعون «سبنترى» •

ومع أن تيبيريوس كان يصرف بعض الوقت مع الفلاسفة والمنجمين والشعراء والزوار ، إلا أن الجزء الأكبر من وقته كان مخصصا لمشاهدة عروض السبنترى ويدهى أنه كان يشاهد تلك العروض مع فتياتهن ونسائهن (وصبيانهن) المفضلات وبذلك أصبحت فيلاته المشمسة معابد للرذيلة بكل معانيها •

وكانت التماثيل التى تكتظ بها الفيلات وحدائقها تماثيل للرديلة والجنس المنحرف . وكانت مكتبة كل فيلا تكتظ بمخطوطات الجنس والأدب المكشوف . وكانت مخازن الفيلات مزدحمة ببراميل الحمر والنبيد . وحتى الآلهة لم يفلتوا من عبث تيبيريوس فقد أمر المثاليين بأن ينحتوا لهم تماثيل تصورهم فى صور جنسية شاذة .

وراح تيبيريوس يشرب كما لم يشرب من قبل ويفترف من الجنس كل ما يستطيع ، وأحيانا كل ما لا يستطيع !! . وفى الأقبية كانت أبشع ضروب العذاب تنصب على سجنائه ، وكان تيبيريوس يستمتع بمناظر ذلك العذاب وكان يتفنن فى ابتكار أنواع جديدة منه . ولم تكن الزنانات تخلو أبدا من النزلاء . فقد كانت أقل هفوة جديرة بأن تقذف بصاحبها كائنا من كان الى آقبية العذاب . وحتى أصدقاء تيبيريوس لم يكونوا بآمن من ذلك المصير .

وذات يوم وقعت سمكة رائعة فى شبكة أحد الصيادين . قرأى المسكين أن يقدمها الى الامبراطور . ولكن الأخير كان يستمتع وهو ناعس بجلسة مريحة فى الحديقة . وكان من لهفة الصياد على الجائزة المنتظرة أنه أفزع الامبراطور حين تقدم اليه بالسمكة . وكان جزاؤه هو أمر من الامبراطور للحراس بأن يضربوا وجه الصياد بالسمكة الضخمة وأن يدعكوا وجهه بها . وأفلت الرجل بعد ذلك من أيديهم وقد تشوه وجهه وسالت دماؤه .

ولم يكن تيبيريوس يكتفى بالاستمتاع بالجنس مع الجوارى ومع السبايا ومع السينترائ ومع الصبية وانما كان يمارس الجنس مع الأطفال الذين كان بعضهم دون

الفظام • كما أنه راح يهتك أعراض السيدات الرومانيات من النبيلات أو من غير النبيلات • وقد بلغ من الحاحه في مطاردة نبيلة شريفة هي مالونيا (التي كانت زوجة موظف كبير) أنها أثرت الانتحار على أن تخضع لرغباته •

وفي روما كان سيجانوس يقرض أصابعه غيظا • فقد كان قد استنفذ جهدا كبيرا في تدبير مقتل دروسوس • وكان السبيل الذي يوصله إلى ثمار جريمته هو الزواج من ليفيلا • ولكن تيبيريوس رفض وظل يرفض باصرار أن يأذن له بذلك الزواج • وبعد رسائل وتوسلات ومحاولات عديدة يؤس سيجانوس وراح يفكر في تكتيك آخر يحقق به هدفه • ووجد مطلوبه في اتجاهين أحدهما هو القضاء على كل وريث آخر محتمل للعرش و ثانيهما هو تشديد قبضته على السلطة •

وأضعفته الظروف بما ساعده على تحقيق مطلبه في توطيد سلطته على الحكم • فقد ثار أحد ضباط الحرس البريتوري في جنوب إيطاليا وجند عددا ضخما من العبيد واقتحم بهم مدينة برنديزيوم وهناك أطلق السجناء والعبيد وضمهم إلى جيشه ثم راح يجتاح المدن والقرى • ولحسن حظ سيجانوس فإن أسطولا وصل إلى برنديزيوم فجأة وللتو تم تجنيد بحارته وقادهم أحد ضباط سيجانوس في هجوم مفاجيء • سحق به الثورة • وفي نفس الوقت كانت القوات التي بعث بها سيجانوس للقضاء على ثورة تاكافرينوس في أفريقيا قد حققت بعض النجاح في مهمتها •

واجتمع السناتو ووجه الشكر على تلك الانتصارات للامبراطور • ولكن الامبراطور لم يكن هناك وإنما كان الذي تلقى الشكر والتقدير هو سيجانوس •

أما فى كابرى فكان الامبراطور لا ينظر فى شئون الحكم الا فى القليل النادر (الذى كان يسمح به سيجانوس) . ومن بين المشاكل التى تصدى لعلاجها كانت مشكلة المآدب السفهية التى كان يقيمها سناتو يدعى جالوس . ومع أن تلك المآدب كانت اقل فى الحجم والذيلة من مآدب تيبيريوس ذاته . الا أن الأخير رأى أن ماهو مباح للامبراطور لا يجوز أن يكون مباحا لسناتو ولذا فانه استدعى جالوس ووجه اليه اللوم ومقذع السباب ثم أصدر أمره بتحريم مثل هذه المآدب فى المستقبل ، مع استثناء واحد ، وهو أنه لا بأس بأن يقيم جالوس مأدبة أخيرة بشرط أن يكون الامبراطور هو ضيف الشرف فيها . .

وبقيت أمام تيبيريوس مشكلة واحدة . وكانت تلك المشكلة هى والدته ليفيا . فقد كانت غاضبة لابعادها عن شئون الحكم وكانت قد بدأت تهدد بنشر بعض رسائل أغسطس التى كان قد قال فيها رأيه السيء فى تيبيريوس . وقد تسربت أخبار ليفيا والرسائل الى الشعب . حتى لقد كتب بعضهم أبياتا تقول «أيها الوحش البغيض . على اللعنة لو كان قد بقى أحد يحبك ، حتى والدتك نفسها» .

وكان عمر ليفيا قد تجاوز الثمانين . ولم يكن باستطاعتها أن تسافر الى كابرى . وعندما مرضت أرسلت اليه ليزورها ، فرفض فبعثت اليه ثانيا وثالثا برسائل الرجاء بأن يزورها ولكنه استمر على الرفض . وعندما ماتت رفض أن يأذن بدفنها . وترك جثتها تتعفن حتى يشبع رغبته فى اهانتها . وبعد لئى سمح بدفنها ولكنه رفض أن يحضر الجنازة . وكان الذى رأس الاحتفال بدفنها هو «كاليجولا» .

وكان كاليجولا فى الخامسة عشر من عمره ، وكان والده هو جرمانيكوس وكانت والدته هى أجريينا (حفيدة أغسطس من ابنته جوليا) . وكانت أجريينا اينة لتييريوس بالتبنى (عندما كان زوجا لوالدتها) . وكان جرمانيكوس واحدا ممن وضعهم سيجانوس فى قائمة منافسيه على العرش ، وكذلك كان أولاد جرمانيكوس كاليجولا ونيرو ودروسوس . ونلاحظ هنا أن اسم دروسوس يتكرر كثيرا فى الاسر الرومانية الكبيرة . وغيرهم ، كان كلوديوس (شقيق -جرمانيكوس) . وكان الأخير هو أقربهم لوراثة العرش . لأنهم كانوا صبية صفارا ، أما كلوديوس فكان فى الثلاثين من عمره ولكنه كان يبدو غبيا وبليدا ، وكان يبتلع الاهانات بكل خضوع . وأما فى حقيقته فانه لم يكن غبيا (وان كانت فيه كل رذائل القسوة والانحراف بدوره) ، وانما هو كان يتظاهر بالبله لينجو بحياته . وفعلا استطاع أن ينجو من المذابح والاغتيالات فى عهد ثلاثة من الأباطرة بهذه الطريقة . وكذلك نجا من يد سيجانوس .

ووجه سيجانوس ضربته الأولى نحو أسرة جرمانيكوس فكلف واحدا من أتباعه «دوميتيوس» بأن يوجه الاتهام الى قريبة لأجريينا ، اسمها بولشرا ، بأنها خانت زوجها وعملت على تسميمه . ثم عرض القضية على تييريوس . ولم يتردد تييريوس فى ادانة بولشرا والحكم عليها . وتاما كما توقع سيجانوس ثارت أجريينا وتقدمت بالشكوى الى الامبراطور من الحكم ، ولكنه رفض أن يستجيب اليها . وتبينت أجريينا هدف المؤامرة . فقد كان معنى ادانة صديقتها وقرببتها بولشرا أنها سوف تكون هى الضحية التالية . ولذا فانه

راحت تبحث عن صديق قوى لكى تستند اليه • ووجدت هذا الصديق فى شخص أسينيوس جالوس • وبهذا الاختيار قضت أجريبينا على نفسها قضاء مبرما (فقد كان جالوس هو الرجل الذى تزوج فيبسانيا بعد طلاقها من تيبيريوس) • ومع أن فيبسانيا كانت قد ماتت فان حقد تيبيريوس على جالوس لم يخمد أبدا • وبذلك كان اسم جالوس مسجلا فى قائمة ضحايا حقه المنتظرين • وبالتجاء أجريبينا الى جالوس فانها فقدت أى احتمال للرحمة من تيبيريوس • وانتهز سيجانوس الفرصة فأوحى الى تيبيريوس بأن يدعوها الى العشاء معه • وكان سيجانوس يعرف طبيعة أجريبينا المتكبرة ويعرف أنها سوف تجلس الى المائدة بغير أن تتناول أى طعام (احتجاجا على تصرفات تيبيريوس نحوها) وحدث ما توقعه سيجانوس تماما • اذ رفضت أجريبينا أن تتناول أى لقمة • وأمسك سيجانوس بالفرصة فهمس فى اذن تيبيريوس بأن تصرفها يعنى أنها تخشى أن يكون الطعام مسمما • وأراد تيبيريوس أن يختبر صحة ذلك الاتهام فانتقى بيده تفاحه وقدمها اليها • وبكل كبرياء (وغباء) ناولت أجريبينا التفاحة للعبد الواقف من خلفها • وثار غضب تيبيريوس فكتب رسالة الى السناتو وعدد فيها الاتهامات ضد أجريبينا وطلب ادانتها • ولكن السناتو (رغم خضوعه المطلق لتيبيريوس وسيجانوس) تردد فى أن يمس حفيدة أغسطس بسوء ، كما أن شعب روما راح يخرج فى مظاهرات عديدة ويعلن عن ولائه لأجريبينا وأبنائها الثلاثة • وقد تطلب الأمر رسالة ثانية (وعنيفة) من تيبيريوس الى السناتو حتى خضع السناتو وأدان أجريبينا • وللتو حكم تيبيريوس عليها بالنفى الى جزيرة باندا تاريا (نفس الجزيرة

التي كانت قد نفيت اليها وماتت فيها أمها جوليا) ثم حكم على ابنها نيرو بالنفى الى جزيرة بونتيا ، ثم أعاده الى روما . وفى روما انتحر نيرو . أما كاليجولا ودروسوس فقد كانا صبيين ولذا فان ثيبيريوس اكتفى باستبقائهما تحت رقابته فى كابرى . وكان ذلك انتصارا ثانيا لسيجانوس .

وفى كابرى كان الامبراطور يقضى وقته كيف يشاء مستمتعا تارة بالجنس وتارة بتعذيب الضحايا وتارة باعدامهم . وكان ينفجر فى قهقهات رهيبة وهو يشاهد عمليات الاعدام .

وكانت تلال كابرى حادة الميول . وقد استثمرها تيبيريوس فى نوع مبتكر من القسوة . اذ خصص بعض الجنود للإقامة على الشاطئ ثم راح يلقي بضحاياهم من فوق الصخور . وكان واجب الجنود هو فحص الضحايا وجلد من يجدونه حيا منهم حتى الموت . وفى روما راجت أغنية شعبية تصف وحشيته فتقول «انه ليس عطشانا الى النبيذ ، وانما الذى يروى ظمأه هو قدح من الدماء» . وكان من الواضح أن تيبيريوس قد دخل فى الجنون . ولكنه مع ذلك كان يؤوب الى رشده من آن الى آخر ويعوده ذكاؤه وألمعيته . وكان ذلك يحدث غالبا عندما يجلس مع حاشيته من الفلاسفة والمنجمين . وان لم تخل مثل هذه الجلسات من بعض المآسى . فقد حدث أن أشار صديقه الفيلسوف زينو الى أن لهجته الاغريقية تقرب من لهجة أهل رودس . وللتو (ولغير سبب مفهوم) وجد زينو نفسه مقبوضا عليه ومنفيا الى جزيرة قاحلة .

أما عن سيجانوس فان قبضته كانت تمسك بكل خيوط الحكم والسلطة . وحتى زوار تيبيريوس (من ملوك وحكام

وأمرء وأعضاء السناتو والنبلاء . . الخ) فانهم كانوا يضطرون الى الانتظار أياما وآسابيع على الشاطئ الايطالى المقابل لكابرى ، حتى يصلهم الاذن من سيجانوس بالعبور اليها .

وفى كل أنحاء الامبراطورية راحت تماثيل سيجانوس تقف الى جوار تماثيل تيبيريوس . وفى فلسطين ثار اليهود على تلك التماثيل ، لأن القانون الرومانى كان يقضى بعبادتها . ولكى يهدىء الحاكم «بونتئوس بيلا» من ثائرة اليهود فانه رأى أن يسترضيهم بالاستجابة الى طلب المجمع اليهودى «السندرين» بصلب رجل معين . ولعل بيلا رأى فى ذلك فكاهة طيبة ، لأن اليهود انما كانوا يطلبون صلب الرجل الذى ادعى أنه ملكهم (١) .

ولا يوجد مايدعو الى الظن بأن تيبيريوس قد علم بصلب ذلك الرجل «يسوع المسيح» أو حتى عرف اسمه . ولكن خلفاء تيبيريوس عرفوا ذلك الاسم بعد ذلك جيدا .

(١) لقد ذهب الكاتب فى تصوير وناويل قضية صلب المسيح بما يضىء عليها طابع القسوة والتفكه من جانب بيلا . بينما نفر الأناجيل وسائر المراجع التاريخية أن بوسبوس بيلا عارض فى صلب المسيح وحاول أن ينخلص من صفت اليهود فأحال القضية الى هيرود (ملك اليهود) ولكن الآخر تهرب من النظر فيها وأعاد المسيح الى بيلا وللمرة الثانية قاوم بيلا وعرض على اليهود أن بصلب لهم أحد اللصوص وأن يطلق سراح المسيح ولكمهم رفضوا وصاحوا « اصله . دمه علينا وعلى أولادنا (وعدنذ دعا بيلا نانا، ماء وغسل بديه من دم المسيح ثم أمر بصلبه . العرب .

الفصل الرابع عشر

الرسالة القاتلة • •

فى اليوم الأول من سنة ٣١ ميلادية سمح تيبيريوس للسنواتو بأن ينتخبه قنصلا للمرة الخامسة • ولم يكن لذلك الانتخاب أى معنى ديمقراطى وانما هو كان على سبيل مراعاة الشكليات فقط • وكان للامبراطور الحق فى أن يختار القنصل الثانى • واختار تيبيريوس سيجانوس • وكان ذلك الاختيار تشريفا لسيجانوس ، الذى كان يجمع بين يديه سلطات القنصل والامبراطور معا • وزيادة على ذلك فان تيبيريوس حقق لسيجانوس أقصى أحلامه فسمح له بالزواج من ليفيلا • وللتو أقيمت احتفالات التكريم لسيجانوس فى سائر أنحاء الامبراطورية وأقيمت له تماثيل من الذهب الخالص •

وحسب سيجانوس أنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من العرش • ولكن تيبيريوس ألقى فى طريقه بمفاجأة كبرى • فقد بعث برسالة الى السنواتو • وفى تلك الرسالة أعلن تيبيريوس عن اسم خليفته على عرش الامبراطورية وكان هو «كاليجولا» •

وجن سيجانوس غضبا وبدأ فى الحال بتدبير قتل تيبيريوس والاستيلاء على العرش بالقوة • ومع أن قوات الحرس البريتورى كانت تحت قيادته ومع أنه نجح فى شراء كل ذى نفوذ وضمه الى مؤامرتة فانه لم يستطع أن يتحرك قبل أن يضمن ولاء القوات الرومانية البعيدة • فقد كان من الممكن أن يتحرك منها خمسون ألفا الى روما وأن يقصوه عن العرش • ولذا فانه بعث رسله الى تلك القوات وراح ينتظر على نار •

ومع أن روما كانت قد بدأت تشعر بالمؤامرة فان سيجانوس كان مطمئنا الى رقابته المحكمة على كابرى وكان واثقا من استحالة وصول أى خبر أو اشاعة الى الامبراطور الا عن طريقه •

وذات يوم ظهر الكوكب المذنب فى السماء ••

وفى الصباح التالى كان سيجانوس يجلس فى مقعد الصدارة بمجلس السناتو ويتلقى تحيات الاكبار من كل جانب ، بينما كان يقف على المنصة أحد ضباط الحرس البريتورى ويقرأ رسالة موجهة من الامبراطور الى السناتو • وكان اسم ذلك الضابط هو ماكرو ، وكان من أخلص أتباع سيجانوس • ولذا فان الأخير لم ير بأسا فى الموقف وراح يستمع مع الشيوخ الى رسالة الامبراطور • وكانت الرسالة تقول «سادتى الشيوخ • اننى رجل عجوز وخائف • أغيثونى • امنحونى حمايتكم» • وابتسم سيجانوس فطالما كانت تلك هى المقدمة التى يبدأ بها تيبيريوس رسائله • ورحب سيجانوس فى أعماقه بتلك البداية الخائفة للرسالة • فقد كانت تؤكد أن الامبراطور أضعف وأذل من أن يصلح لمنصبه • وفجأة

تغيرت لهجة الرسالة ، اذ راحت تقول «ان سيجانوس خائن متآمر» • ثم استطردت الرسالة فى سرد الأدلة على ذلك ثم انتهت بطلب ادانته واعدامه •

• وكم كان سيجانوس مخطئاً فى اطمئنانه الى قوته ومتانة مركزه • فقد كان الحاقدون عليه (وخاصة فى مجلس السناتو) أكثر مما يتصور • • فكل منصب أهدها الى واحد من أتباعه أو حلفائه كان منتزعا من رجل آخر • وكان هناك الكثيرون فى السناتو • • ممن فقدوا مناصب الحكم على يدى سيجانوس •

وفى دقائق قليلة استجابت غالبية الشيوخ الى رسالة الامبراطور وأدانت سيجانوس وحكمت عليه بالاعدام • وخرج سيجانوس من المجلس وفى عنقه حبل الجلاد وتم اعدامه على الفور •

وتلت ذلك سلسلة من احكام الأعدام على كل من كان يمت اليه بصلة وحتى أبعد أهله عن المؤامرة أعدموا • وكان من بينهم طفله وطفلته ، اللذين أعدموا لا لسبب سوى أن سيجانوس كان والدهما • وكان القانون الرومانى • لايسمح باعدام العذارى الرومانيات • ولكن تيبيريوس ابتكر حلا يرضى القانون • فقد أمر الجلاد باغتصاب الطفلة (التي كانت هى وأخيها دون العاشرة) ثم أعدمها بعد ذلك هى وأخيها خنقا •

وكان يوم كشف مؤامرة سيجانوس واعدامه يوم رعب لتيبيريوس • فقد علم بالمؤامرة من سيدة كانت أبعد ماتكون عن حبه • لأنها كانت هى أنتونيا والدة جرمانيكوس،

الذى كان تيبيريوس متهما بتسميمه ، وكانت زوجة ابنتها (أجريبينا) وحفيدها (نيرو) منفيين بأمره . ومع ذلك فان حقدتها على سيجانوس كان أكبر ، ولذا فانها نجحت فى تسريب رسالة تحذير الى الامبراطور . ووجد الامبراطور فى شخص ماكرو حليفا طموحا وقويا فبعث معه بالرسالة الى السناتو وكان ماكان . وفى اليوم المحدد لتقديم الرسالة الى السناتو جهز تيبيريوس نفسه للفرار ان فشل تدبيره . ثم بعث برسل وجعلهم يرابطون على طول المسافة بين روما وبين الشاطئ الايطالى المواجه لكابرى . وكانت علامة الانتصار على سيجانوس هى ايقاد النيران ووقف تيبيريوس على أعلى تل فى كابرى ، وراح ينتظر اشارة النيران . وجاءت الاشارة أخيرا . فعاد الى الفيلا رقم ١٠ واحتفل طول الليل بتلك المناسبة السعيدة .

العجوز المفترس

بلغ تيبيريوس السبعين من عمره .

وبعد مصرع سيجانوس قضى فى الفيلا رقم ١٠ أكثر من تسعة أشهر بغير أن يغادرها . فقد كانت الشيخوخة قد بدأت تتغلب عليه ، فازدادت نحافة جسمه أما وجهه فكانت تكسوه البقع والغضون والتشوهات . وكانت التماثيل التى تقام له فى ذلك الوقت كاذبة بالكلية فقد كانت تصوره وسيما ناعم الوجه نافذ النظرات بينما شفتاه وخدوده وذقنه مكسوة - فى الواقع - بالندبات التى أثمرها الكى المتتالى . وكان الكى هو العلاج الوحيد لتلك القروح التى كانت تكسو وجهه . ولعل سببها كان هو الزهرى أو مرض جلدى آخر .

ومن العسير أن نقرأ عن السنوات الأخيرة لذلك الامبراطور الرهيب بغير أن نشعر بنوع من الشفقة . فقد كان بغير حب وبغير أصدقاء وبغير صحة كما أنه من المستحيل أن نقرأ عن أفعاله الدموية فى تلك الفترة بغير أن نشعر بالفزع والتقزز . وكانت الفئة الوحيدة التى تعيش معه فى

أمن نسبي هي فئة المنجمين (وعلى رأسهم ثراثيليس) • أما الآخرين فإن أحدا منهم لم يكن في أمان من غدر تيبيريوس •
ويوميا كانت تدور عجلة الوشائيات والتحقيقات والمحاكمة والتعذيب والقتل • وحين كانت تعوزه الضحايا فانه لم يكن يتردد في اصطياد أفراد حاشيته وأصدقائه ليصبحوا وقودا لمزاجه الدموي الرهيب • ولقد بلغ من قسوته أنه كان يحرم على أقارب ضحاياه أن يبكوهم أو يحزنوا عليهم • وذات يوم جرئت والددة «فوفوريوس» على النواح أثناء اعدامه فأمر تيبيريوس باعدامها • وبتهمة ملفقة تماما تصيد تيبيريوس أسينيوس جالوس (زوج فييسانيا) وصب عليه أنواع العذاب ، ثم عذب وأعدم صديقا له هو سيناكوس • أما جالوس فإن تيبيريوس كان به رحيما •• اذ تفضل وأذن له بأن يقتل نفسه •

وفي نظام القضاء الروماني كان يوجد «الديلاتور» (المبلغ) • وكما سبق أن أشرنا فإن تجارة التبليغ (والأصح الوشاية) كانت تجارة رابحة • وفي تلك الأيام كان المبلغون ينتشرون في كل مكان وكان تيبيريوس هو زبونهم المفضل • وسعيا وراء المزيد من المكافآت فإن معظمهم كان يتخصص في تلفيق التهم وتزوير الأدلة • وكان بعضهم يجيد ايقاع ضحاياه في أخطاء أو تصريحات كانت تكفي (مهما كانت هينة) لدمغه بالخيانة • ولقد حدث ذات يوم أن لاحظ واحد منهم أن ضابطا في الحرس البريتوري (كان اسمه كالبورينس) يلبس في اصبعة خاتما كانت صورة تيبيريوس محفورة عليه ، وتلك دلالة على فرط الولاء بغير شك • ولكن المبلغ يادر بتبليغ تيبيريوس بأنه شاهد كالبورينس وهو يمسك باليد

(التي تحمل الخاتم) بعضوه أثناء التبول ، وتلك اهانة للذات
الامبراطورية . ولولا أن أحد عبيد كالبورينس كان قد لمح
المبلغ أثناء تجسسه على سيده ، فبادر باستبدال ذلك الخاتم
بخاتم يحمل صورة شخص آخر ، والا لثبتت التهمة على
كالبورينس ولكان مصيره هو الاعدام .

وكانت زنانات كبرى ممتلئة على الدوام . ليس فقط
بالعبيد والمجرمين وانما أيضا بالنبلء والأمراء . وحتى
الملوك لم يفلتوا من الوقوع فيها . فقد كان هيرود أجريبينا
(ملك اليهود) ضيقا على تيبيريوس . ولكن الأخير أمر بسجنه
فى نزوة عابرة .

أما عمليات الاعدام فكانت تدور فى كل الأيام . وحتى
أيام العطلات والأعياد ورأس السنة كانت لاتخلو منها . وكان
تيبيريوس يدور بين أقبية السجون ويفتش على الزنانات
ويزور قاعات التعذيب ليستمتع بمرأى ضحاياه كما يستمتع
الجزار برؤية ماشيته . وكانت صيحات الألم من خلع المفاصل
والأظافر وتحطيم الأسنان وخلع العيون والكى بالحديد المحمى
تشنف أذنيه . وكان يحول بين ضحاياه وبين الموت السريع .
وعندما هتف به أحد الضحايا متوسلا أن يأمر بقتله ليرجحه
من العذاب رد عليه قائلا «كلا انك لست صديقى» . وعندما
تمكن سجين آخر من الانتحار صاح تيبيريوس غاضبا «لقد
أقلت من يدى» .

ولم يكن تيبيريوس يكتفى بأنواع التعذيب المعروفة
وانما كان يستدعى الخبراء فى ذلك الفن الرهيب ويكلفهم
بابتكار أنواع جديدة منه . وحين كانت ابتكاراتهم لاترضيه
فانه كان يبتكر هو أنواعا جديدة . ومنها أنه كان يستدعى

ضحيته ويلقاه بابتسامة عطوف ثم يأمر بتقديم النبيذ اليه ويشجعه على الاكثار منه . وحين كان الضحية يصل الى حد الامتلاء كان تيبيريوس يأمر بتجريده من ثيابه وربط عضوه الجنسي بحبل متين لكى يعجز عن التبول . وكان الضحية يموت بعد عذاب رهيب . . ان لم يكن من الألم فمن انفجار المثانة والحالبين .

وراح المحققون ينقبون فى حياة الناس وفى سجلات القضايا سعيا وراء المزيد من الوقود لقاعات التعذيب . وساحات الاعدام . وكانوا يجدون بغيتهم فى قضايا انتهت منذ وقت طويل . ومنها قضية كانت تدور حول سيدة اتهمت بمحاولة تسميم زوجها منذ عشرين سنة . ومع أن القضية كانت قد انتهت بتبرئتها ، ومع أن زوجها كان قد طلقها منذ ذلك التاريخ ، فان محققى تيبيريوس أمروا بالقبض على السيدة وبادخالها الى قاعات العذاب . ثم أعدمت فى نهاية الأمر لا لسبب سوى أن قائمة المحكوم عليهم بالاعدام كانت لم تمتلئ بعد . .

وفجأة وقع المحققون على كنز ثمين . . . لقد مات دروسوس (ابن الامبراطور) مقتولا بالسهم . . وعندما علم الامبراطور بتلك الحقيقة ، انطلق فى عمليات القبض والتحقيق والتعذيب والاعدام كالمجنون ، وكرس وقته لها . واذا كان سيجانوس قد أفلت من يد تيبيريوس ، فان كل من شارك فى تسميم دروسوس قد وقع فى مصيدة تيبيريوس وذاق ألوان العذاب والموت على يديه . وحتى الأبرياء ، وقع منهم الكثيرون فى تلك المصيدة . وكان زبانية تيبيريوس يتلقون شحنات كاملة من المتهمين والشهود فى قضية

دروسوس ويعذبونهم على حد سواء • ولقد حدث أن واحدا من أثرياء جزيرة رودس كان (لسوء حظه) قد استضاف تيبيريوس في مبدأ نزوله فيها حتى يتم بناء فيلته ، وفي كابري خطر على بال تيبيريوس أن يرد له جميله فدعاه لزيارته • وحضر الرجل وهو يتوقع الفوز بالكثير من كرم الامبراطور وهباته ، فكان كل ما فاز به هو الموت والعذاب • فقد كان قد عبر من الشاطئ الايطالى الى كابري فى سفينة كانت مكتظة بالمتهمين فى قضية دروسوس • وما أن وضع قدمه فى كابري حتى وجد نفسه محشورا بين زمرة المتهمين • ودارت عليه آلات التعذيب حتى أحالته الى أشلاء تتردد فيها بعض نسمات الحياة • وعلم الامبراطور بما حدث فأمر بإحضار الرجل • وحين رآه على ذلك الحال لم يتردد فى إنهاء عذابه ، فأمر بقذفه من فوق التلال ! • وعلى الشاطئ تناول الجنود الجسد المحطم وأخمدوا أنفاسه بسياطهم • •

أما عن شئون الحكم وإدارة الامبراطورية فان تيبيريوس أعطى مقاليدها لماكرو • وتفرغ هو بالكلية لأقبية التعذيب ومخادع المتعة فى كابري • ولكن ذلك لايعنى أنه ترك رسم خطوط الحكم الأساسية لغيره • فقد كان قد وضع أسسامماتاة لإدارة الامبراطورية • وفى عهده راحت الأموال تتدفق على الخزانة ، كما بدأ الحكام يشعرون بالاستقرار فى مناصبهم • كما أنه وفر على الخزانة معاشات الجنود ، اذ كان يرفض أن يحيلهم الى التقاعد ويتركهم يعملون حتى الموت • • فقد كان ذلك أوفر •

وعن مسألة وراثة العرش فانه كان قد استبعد منها حفيده «جيميلوس» (ابن ابنة دروسوس) لانه كان لم يتعد

السادسة عشر ، كما استبعد دروسوس (ابن جرمانيكوس وأجريبينا) بنفيه وتجويعه حتى مات (عند موته وجد الحراس فمه مملوءا من القش الذى كان يملأ مرتبة سريريه) ولم ينج المسكين - حتى بعد موته - من حنق تيبيريوس ، فقد أمر هذا بتمزيق جثته اربا - ولقد قتلت أجريبينا عندئذ نفسها .

كما استبعد تيبيريوس من وراثة العرش «كلوديوس» - فقد كان هذا أعرجا (بسبب اصابته فى الطفولة بشلل الأطفال) وكان فمه معوجا ، وكانت تبدو عليه البلاءة والبلادة . وكانت أمه تسميه «المسخ» ومع أن كلوديوس كان يحفظ قدرا طيبا من الشعر الاغريقى فانه فيما عدا ذلك كان كما مهملا .

وكان محتقرا من الجميع حتى زوجته . ومع ذلك فان كلوديوس تولى العرش من بعد كاليجولا ، وكان - بمقاييس العصر - من أمهر الأباطرة وأقدرهم على ادارة الامبراطورية ، حتى لقد قرر السناتو والشعب تأليهه بعد موته - الأمر الذى كانوا قد رفضوه بالاجماع بالنسبة لتيبيريوس - . ويبدو أن كلوديوس كان يتظاهر بالغباء والبلادة حتى ينجو بحياته ويقلت من براثن تيبيريوس .

وكان لابد لتيبيريوس أن يختار وريثه على العرش فلم يجد أمامه سوى كاليجولا . وكان الأخير فى الخامسة والعشرين من عمره كما أنه كان محبوبا من الجيش منذ طفولته . ولقد استطاع أن يحصل على رضا تيبيريوس عنه ، بالالتزام بكل قراراته والترحيب بكل أفعاله (بما فيها قتل أبيه جرمانيكوس وأخيه دروسوس وانتحار أمه أجريبينا وأخيه نيرو) . ولقد عجز المبلغون عن الحصول منه على كلمة اعتراض أو نقد واحدة على مضارع هؤلاء . حتى راح بعضهم يقول «اننى لم

أر فى حياتى عبدا أحقر ولا سيدا أسوأ من كاليجولا» .
وكانت تلك نبوءة صائبة الى أبعد حد .

ولقد كان كاليجولا يميل بشدة لمشاهدة مناظر التعذيب والاعدام وكان يدأب على الاستمتاع بها . ولقد كان ذلك مصدر ارتياح لتيبيريوس فراح يقول «اننى أرى ثعبانا ساما فى أحضان روما» . ومن بعد أن اختاره وريثا للعرش زوجه بفتاة تدعى جوليا كلوديا .

ولم يكن مارآه تيبيريوس هو كل شىء فى كاليجولا . فقد كان الأخير فى أعماقه وحشا جهنميا ، وكان معدوم الرحمة بالكلية ، ولقد بلغ من الرذيلة حدا لم يتورع معه عن مضاجعة شقيقاته الثلاث . ثم انه لم يتردد فى تأكيد فرصة حصوله على العرش ، عن طريق مغازلة زوجة ماكرو والارتباط معها بالزنا (مقتديا فى ذلك بسيجانوس) .

واذا كانت قسوة تيبيريوس قد انصبت على الأفراد فان كاليجولا (بعدها ارتقى العرش) صب سوط الموت والعذاب على الامبراطورية من أقصاها الى أقصاها ؛ وجعل الناس يترحمون على تيبيريوس .

وجاءت ساعة تيبيريوس .

فقد ظهر طائر العقاب «فوينكس» فى مصر . وهو طائر لم يكن يظهر للناس الا بين مئات السنين . وتتالت علامات أخرى . فقد وجد الامبراطور ثعبانه المفضل ميتا ذات صباح . كما انطلق لسان من اللهب من بين رماد المدفأة فى قاعة الطعام ثم وقع زلزال هز كابرى وأخيرا فقد كان قد تلقى تمثالا رائعا لأبوللو ، وجاءه أبوللو فى المنام وقال

له «انك لن تستطيع أن تحتفل باقامة تمثالى» • وأفرعت تلك
العلامات تيبيريوس فلجأ الى ثرائيليس لكى يفسرها • ولكن
الأخير كان أذكى من أن يفسرها على حقيقتها وبالأحرى أن
يفسر مظاهر شيخوخة وانهيأ صحة تيبيريوس على حقيقتها •
ولذا فانه راح يمسك بكتب التنجيم ويشير الى السطور ويقول
«انظر هذا واقراً ذاك ، ان التفاسير كلها تشير الى أنك
ستعيش وتعمّر طويلاً» • ولم يتردد تيبيريوس فى التصديق
لأنه كان يرغب فى أن يصدق • ولقد كان فيما فعله ثرائيليس
خير كثير ، سواء لنفسه أو للناس فمن الذى كان يستطيع أن
يتنبأ بالكوارث التى كان سيوقعها تيبيريوس بثرائيليس
وبالشعب لو أنه علم بأن موته قريب ! • وإذا كان هيرود
(ملك اليهود) قد أكرم نفسه باحتفال رهيب بعد موته • • •
اذ أمر بأن تتم عمليات ذبح جماعية بمجرد موته • وبذلك
استطاع أن يضمن أن يتم تشييع جنازته وسط اللطم والعيول
فى كل بيوت اورشليم • • اذا كان هيرود وهو الحاكم التابع
قد فعل ذلك فمن الذى كان يضمن ألا يطبق تيبيريوس ذلك
المثال الرهيب على مستوى الامبراطورية • وتلقى تيبيريوس
دعوة لحضور حفلة للمصارعين فى احدى المدن • فغير اليها
وهو مطمئن وأراد - أثناء الحفلة - أن يظهر ان صحته بخير
فتناول بعض الحراب وقذف بها خنزيراً برياً •

ولكن قذف الحراب كان أكبر من طاقته فانخلع كتفه •

ونقل تيبيريوس الى بيت قريب وهناك راح يلفظ
أنفاسه • وانتشر النبأ على الفور قطار كاليجولا الى هناك ،
وانتزع الخاتم من اصبع تيبيريوس ثم خرج ليتلقى التهانى
والتهافتات • وكان ماكرو هو أول المهنتين •

• وفجأة انقلب الحال •

فقد أفاق تيبيريوس وفتح عينيه وطلب شيئا يأكله •

وعلى أى حال فان تيبيريوس لم يكن بالرجل الذى يموت
يسهولة ، لأن الموت — موته هو فقط — كان لايتفق مع مزاجه
مطلقا •

ماكرو يسدل الستار

وما أن علم كاليجولا نبأ افاقة تيبيريوس حتى طار هاربا وراح يبحث عن مكان يختبئ فيه من غضبه . فقد كان من المؤكد أنه سوف يحاسبه حسابا عسيرا على تعجله بامتلاك الخاتم وعلان نفسه امبراطورا .

أما الجماهير فتناثرت في جماعات ، ثم راحت تنعى حظها السيئ ، (ولم تكن تعلم بأن الحظ السيئ كان قادما اليها على يد كاليجولا) ، وكان الوحيد الذي احتفظ بصفاء عقله هو ماكرو . فقد كان هو أول من هنا كاليجولا وأعلنه امبراطورا . فاذا أراد تيبيريوس أن يفسد على ماكرو فرصته فانه كان عليه أن يدفع الثمن .

واندفع ماكرو الى حجرة تيبيريوس وهناك رآه جالسا على الفراش وهو يزمجر غاضبا ويتساءل «من الذى سرق خاتمي؟؟ وآين الأطباء والحاشية وآين الطعام الذى طلبته؟» . وكان جواب ماكرو هو أنه اندفع نحو الفراش وجمع عددا من البطاطين ثم ألقى بها فوق رأس تيبيريوس وراح يضغط

عليه بكل قوته • وقاوم الامبراطور • ولكن كان هيهات
لعجوز محطم أن يتغلب على رجل في عنفوانه كماكرو • وشيئا
فشيئا راحت قوى تيبيريوس تهمد ، وأخيرا خمدت أنفاسه •
ولم يتركه ماكرو الا بعد أن تأكد من أنه لن يعود مرة أخرى
الى الحياة •

وهكذا في ١٥ مارس سنة ٣٧ بعد الميلاد مات تيبيريوس
قتيلا بيد أخلص أتباعه • وكان ماكرو ، الذى أنقذ من قبل
حياة تيبيريوس ، هو نفسه الذى أسدل الستار على تلك
الحياة •

وبعد • فقد استطاع تيبيريوس الامبراطور أن يحول
الدولة الرومانية من الحكم الجمهورى الى الحكم الملكى المطلق •
وحين يتصدى التاريخ للحكم عليه فانه سوف يحتار • فقد كان
— بمقياس المصلحة — امبراطورا جيدا ، لأنه ثبت قواعد
الحكم وحقق السلم والاستقرار لسائر شعوب الامبراطورية •
وكانت حدود الامبراطورية آمنة ومستقرة ما بين نهر الراين
فى أوربا ونهر الفرات فى آسيا • وكانت الامبراطورية تضم
كل العالم المتحضر ، الذى كان يدور كله حول البحر الأبيض
المتوسط •

وفيما عدا بضعة آلاف من ضحايا تيبيريوس الشخصيين
فان سائر الرعايا كانوا يعيشون فى أمان ، لأنه لم يفرض
عليهم أى ضرائب جديدة ، وكانت الضرائب فى عهده معتدلة
— بمقياس العصر — ، كما أنه لم يمارس المذابح الجماعية •
ومع ان كابرى كانت جحيما فى أيامه • فان روما كانت
مزدهرة وهادئة • وصحيح أن المؤرخين ينسبون ثراء الخزانة
فى عهده الى أنه كان بخيلا وكان لا يرغب فى الانفاق على

الحروب أو حفلات الملاعب ، وانما هو كان يقصر نفقاته على ملذاته فقط . ولكن صحيح أيضا أن الامبراطورية خرجت من عهده بخزانة مليئة واقتصاد مستقر .

وعندما سمع أهل روما نبأ موته خرجوا فى مظاهرات تهتف «ألقوا بتيبيريوس اللعين الى نهر اليتبر» . ولكن كاليجولا لم يعجبه ذلك ، فقد كان يضمر لهم عذابا أليما ، لا لشيء سوى أن ذلك كان هو متعته الكبرى ، ولم يكن يرغب فى أن يتعلم أهل روما اهانة الآباطرة وخاصة القساة منهم . ولذا فانه شيع جثة تيبيريوس باحتفال كبير ودفنه بالاحترام اللائق بمقامه .

وبينما كانت الاحتفالات الرسمية بتأبين تيبيريوس تدور ، جاءت أنباء رهيبة من كاپرى . فقد كان هناك عدد من الضحايا الذين ينتظرون الاعدام . وعندما أعلن موت تيبيريوس ظن الجميع أن نجاة هؤلاء الضحايا قد باتت مؤكدة . ولكن الموظفون الموكلون بتنفيذ الاعدام كان لهم رأى آخر . وكأى موظفين بروقراطيين ، أفتى هؤلاء بأن الذى يملك حق العفو عن الضحايا كان هو تيبيريوس ، وقد مات . أما كاليجولا فان مراسم ارتقائه للعرش لم تكن قد تمت ولذا فانه كان لا يملك حق العفو . وفى المواعيد المحددة تم اعدام الضحايا واحدا بعد الآخر .

وصاح الشعب «لقد مات السفاح ولكن قسوته لم تمت معه» . ولكن بعد قليل ، استطاع كاليجولا أن يعلم ذلك الشعب المعنى الصحيح والمتكامل للقسوة .

تعريف ٠٠ مختصر

على عادة الكثير من الشعوب ، جرى الرومان على الاسراف
فى تسمية الابناء بأسماء معينة .

وعلاجا لهذه الظاهرة المربكة فاننا نقدم فى السطور
التالية تعريفا مختصرا بشخصيات الكتاب .

المعرب

جايوس يوليوس قيصر : القائد والدكتاتور والامبراطور
لم ينجب سوى قيصرون (من كليوباترا) . وقد قتل قيصرون،
بعد انتحار كليوباترا ، بأمر أغسطس .

جايوس أكتافيان : هو الامبراطور أغسطس . ابن
أخت قيصر (من جايوس أكتافيان الأب) وابن قيصر بالتبنى .
لم ينجب سوى جوليا ، من زوجته الأولى «سكريبونيا» .
طلق سكريبونيا وتزوج ليفيا (أم تيبيريوس) ، ولم ينجب
منها .

ليفيا : ليفيا دوروسيللا «أوغسطا» • تزوجت تيبيريوس كلودايوس نيرو (الأكبر) • وأنجبت منه تيبيريوس الابن (الامبراطور) ودروسيوس • ثم طلقت منه وتزوجت أغسطس •

جوليا : ابنة أغسطس الوحيدة • تزوجت من مارسيلس «ابن اكتافيا - شقيقة أغسطس الأولى - • وقد تزوجت أكتافيا بعد موت والد مارسيلس من مارك أنتوني ، ثم طلقها أنتوني ليتزوج كليوباترا» الذى مات بالتيفود • ثم تزوجت من بطل معركة أكتيوم «ماركوس أجريبا» ، وأنجبت منه ابنتين (أجربينا وجوليا الصغيرة) وثلاثة أبناء (جايوس ولوشيوس وبوستموس) • وقد ماتت جوليا الصغيرة فى المنفى ، وكانت قد أنجبت طفلا غير شرعى (قتل جوعا بأمر أغسطس) • ومات لوشيوس فى أسبانيا • وقتل جايوس فى حرب صغيرة على الحدود " وقتل بوستموس ، بأمر تيبيريوس •

أجربينا : ابنة جوليا (من ماركوس أجريبا) وحفيدة أغسطس • تزوجت جرمانيكوس (ابن أنتونيا - شقيقة أغسطس الثانية - • مات مسموما) • وأنجبت منه

١ - جايوس (كاليجولا) ، الذى خلف تيبيريوس على العرش (وكان وحشا فى صورة انسان) •

٢ - دروسوس (الذى مات جوعا فى سجن تيبيريوس) •

٣ - نيرو (الذى انتحر فرارا من اضطهاد تيبيريوس) •

٤ - أجربينا ، التى أنجبت نيرو (الذى اشتهر باسم الامبراطور نرون) من زوجها دومتريوس أهينو بارباس • ثم تزوجت - من بعد موت دوميتيوس - من كريستوس بارناس •

الامبراطور - ١٢٩

ثم قتلت كريستوس بارناس وتزوجت من عمها كلوديوس
(الذى أصبح امبراطورا بعد مقتل كاليجولا) ثم قتلت
كلوديوس بالسّم • وقد حاول نيرون - الذى اعتلى العرش
بعد كلوديوس - اغراق أمه أجريينا بواسطة سفينة كانت
مصممة لكى تتفكك بها فى عرض البحر ، ولكنها سبحت
عندئذ ونجت فأرسل اليها نيرون ضابطا قتلها بحد السيف •
وقد انتحر نيرون ، بعد ماثار عليه الحرس والشعب •
أما عن أجريينا «الأم» فقد قتلت نفسها عندما علمت
بانتحار ابنها نيرو •

دروسوس : ابن تيبيريوس الوحيد (من فيبسانيا) •
أنجب ولدا (هو جيملوس) • قتلت زوجته ليفيلا (أخت
جرمانيكوس وكلوديوس) بالسّم بالاشتراك مع عشيقها
سيجانوس •

كتب للمعرب

مؤلفات

- ذكریات معارب قديم •
- الارهاب الصهيونى •
- قضية عمان •
- أضواء على الحرب النفسية •
- ليالى الخير •
- دعاء •
- دعاء الأولياء •
- أضواء على الهرم الأكبر •
- الغواصة • تاريخ • ومغامرات • • ومستقبل •
- الدكتور ابليس (مسرحة) •
- أضواء على الطب الشرعى •

كتب معربة

- صراع في البحر •
- الفدائي العجيب •
- الملاعب الرومانية •

فهرس

٥	الحياة الخاصة لامبراطور روماني
٧	كلمة للمعرب
٩	الفصل الأول : الرجل ٠٠٠ في سطور
١٢	الفصل الثاني : البداية الدامية
٢٠	الفصل الثالث : أغسطس
٣٣	الفصل الرابع : الحياة في روما
٤٢	الفصل الخامس : الجنرال الشاب
٥٢	الفصل السادس : الهرب من جوايا
٥٨	الفصل السابع : في المنفى
٦٧	الفصل الثامن : بيبيريوس ٠٠٠ وليا للعيد
٧٨	الفصل التاسع : يوم في حياة الأمبراطور
٨٥	الفصل العاشر : السلام الروماني
٩٢	الفصل الحادي عشر : متاعب الحكم
٩٦	الفصل الثاني عشر : سيجانوس يتأمر
١٠٣	الفصل الثالث عشر : جحيم المتعة في كابري
١١٢	الفصل الرابع عشر : الرسالة القاتلة
١١٦	الفصل الخامس عشر : العجوز المفترس
١٢٥	الفصل السادس عشر : ماكرو يسدل الستار
١٢٨	تعريف ٠٠٠ مختصر
١٣١	كتب للمعرب

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٥/٥٣٥٤

ISBN ٥ - ٧٢٥ - ٠١ - ٩٧٧ -

إذا كان التاريخ الإغريقى من صنع الفلاسفة ، ومن قبله
كان التاريخ الفرعونى من صنع الكهنة ، فإن التاريخ الرومانى
كان من صنع القادة الغزاة والأباطرة الطغاة . . ومن بين هؤلاء
يقف تييريوس موقفا فذا . فقائدا ناجحا كان هو . .
وإمبراطورا طاغيا كان هو . . وإنسانا متجردا من مشاعر
الرحمة كان هو . . ومع ذلك فإنه كان رجل سلام . . وكان هو
الذى صنع « السلام الرومانى » الذى أعطى للعالم القديم
استقرارا أتاح الفرصة للإنتاج وللتقدم الحضارى . .
وها هى قصته . . . قصة تييريوس .